روائع اقبال

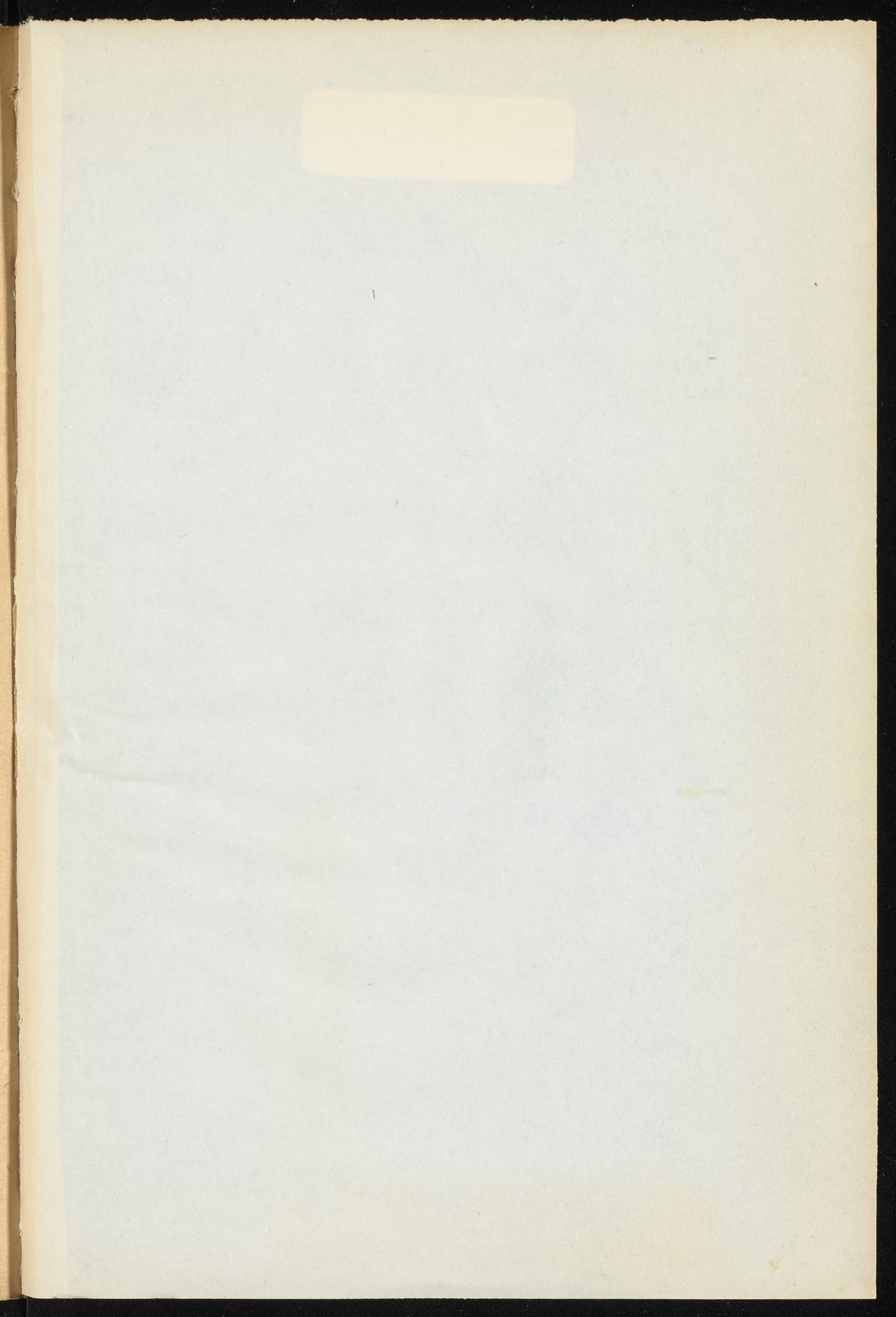
ابو الحسن علي الحسني الندوي





دار الفكر بدمشق





Nadvī, Abulḥasan ʿAlī
...

Rawāʾiʿ Iqbāl

روائع إقبال

ابو الحسن علي الحسني الندوي
وكيل ندوة العلماء - بالهند
عضو المجمع العلمي العربي - بدمشق

دار الفكر بدمشق

الطبعة الاولى

١٣٧٩ - ١٩٦٠

مطابع دار الفكر بدمشق

☎ ١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

صلتي بمحمد اقبال وشعره

نشأت في عصر وفي بيئة بلغ فيها شعر محمد اقبال قمة مجده وشهرته ، وفي جيل فتن به أكثر مما فتن بشعر شاعر وأدب كاتب . فلا عجب اذا أعجبت به صغيراً وعنيت به كبيراً .

ان أسباب الاعجاب بشعر محمد اقبال كثيرة ، وللمعجبين به أن يتحدثوا عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب الى موافقة الهوى والتعبير عن النفس ، فالانسان انما يحب نفسه ويطوف حولها ويعيش فيها ويحبّ كل ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ؛ ولا ابرىء نفسي ، فربما أحببت شعر محمد اقبال لأني رأيته يوافق هواي ، ويعبّر عن ضميري وخواطري ، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري .

إن أعظم ما حملني على الاعجاب بشعره هو : الطموح ، والحب ، والايمان . وقد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم مما تجلى في شعر معاصر ، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحب والايمان وهي تندفع اندفاعاً قويا الى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح ،وسمو النفس ، وبعد النظر ، والحرص على سيادة الاسلام ، وتسخير هذا الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، ويغذيان الحب

والعاطفة وبيعثان الايمان بالله ، والايمان بمحمد ﷺ ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته ، وعموم امامته للأجيال البشرية كلها .

اني أحببته وشغلت به كشاعر « الطموح والحب والايمان » وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ؛ وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها ؛ وكداعية الى المجد الاسلامي وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين ، وأعظم الدعاة الى النزعة الانسانية والجامعة الاسلامية .

قرأت شعره في الصبا وفي عنفوان شبابي ، وحاولت أن أنقل بعض قطعه الأدبية الى العربية . ولم أكن قد قرأت له في ذلك العهد إلا مجموعة شعره « بانك درا » ، وقد صدرت له دواوين فارسية لم أكن قد قرأتها وتذوقتها في ذلك الحين ، لضعف ثقافتي الفارسية . وكانت زيارتي الأولى له في سنة ١٩٢٩ م .

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد قدّر لي أن أزور لاهور ، بلد العلم والثقافة في الهند - غير المنقسمة - ومقر الشاعر العظيم . وفي يوم صائف شديد الحرّ من أيام أيار الاخيرة أخذني الدكتور عبد الله الجغتائي - أستاذ الفن الاسلامي في جامعة بنجاب اليوم - الى محمد اقبال ، وقدّمني اليه وذكر شغفي بشعره ، وذكر والدي مولانا السيد عبد الحي الحسني[1] الذي كان يعرفه محمد اقبال ويعرفه الادباء والمثقفون بكتابه العظيم « گل رعنا » ، تاريخ الشعر والشعراء في الهند الذي

---

(١) مؤلف كتاب « نزهة الخواطر » في تراجم أعيان الهند - غير المنقسمة - في ثمانية مجلدات كبار ، ظهرت سبعة منها من دائرة المعارف ، بحيدر آباد ، الهند . ونشر المجمع العلمي العربي بدمشق كتابا له « الثقافة الاسلامية في الهند » قريباً .

كان قد صدر حديثاً ولفت الأوساط الادبية وأثار الاهتمام فيهـا . وقدّمت اليه ترجمتي لقصيدته البديعة « القمر » فتصفحها محمـد اقبال ، ووجه اليّ أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبر بهـا دراستي وثقافتي ؛ وانتهى المجلس ورجعت معجباً بتواضع الشاعر العظيم وبساطة مظهـره وعدم تكلفه في المعيشة والحديث .

وبقيت بعد ذلك أعواماً طوالا من ١٩٢٩ الى ١٩٣٧ أزور لاهور كثيراً وأقضي فيها أسابيع وشهوراً ، ولا أحرص عـلى زيارة الشاعر العظيم ثقة ببقائه ووجوده - وكم خدع هذا أناساً - وقد أعان على ذلك زهدي في زيارة العظماء وعكوفي على الدراسات والاشغال العلمية في لاهور .

وقد صدر في هذه المدة ديوانان جديدان له في اردو - بعد فترة طويلة ، انقطع فيها عن الشعر في اردو ، وآثر الفارسية لرسالته وشعره - كان لهما دوّي عظيم في الأوساط الادبية والاسلامية ، وشاعريته فيهما أقوى وفكرته أنضج وأحصف ، ورسالته أوضح . وقـد قدّر لي ان اقرأ « ضرب كليم » وأتذوقه أكثر من « بال جـبريل » وان كان من المقدر والمقرر ان يكون إعجابي بـ « بال جبريل » وعنايتي به بعـد في الترجمة والنقل ، أكثر وأعظم .

كنت مدرساً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء ومقيماً مع أخي الاستاذ فقيد اللغة العربية في الهند مسعود الندوي ، منشىء مجلة « الضياء » العربية . وكنا نتناشد شعر اقبال . وكان الاستاذ مسعود من شيعة اقبال ومن كبار المتحمسين له ، وكان يغيظنا ان طاغور أشهـر في الاقطار العربية من اقبال ، وإعجاب إخواننا العرب والادباء في مصر وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيراً منا في تعريف شعـر اقبال ، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور واطـراءاً له في مجلة عربيـة

- وما أكثر ما كنا نرى ذلك في المجلات العربية - قوي عزمنا على ترجمة شعر اقبال ، ورأيناه أمانة في أعناقنا .

وقد قدر الله ان أجتمع بالشاعر العظيم قبل وفاته بشهور ، وان تكون لي معه جلسة طويلة تاريخية . كان ذلك في اليوم السادس عشر من رمضان عام ١٣٥٦ ﻫ (٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٣٧ م) زرته في منزله في الصباح . وكان معي عمي الاستاذ الكبير السيد طلحة الحسني [١] وابن عمي السيد ابراهيم بن اسماعيل الحسني . وكان معتكفاً في بيته في مرض طال به وأضناه ، وكان مرضه الاخير الذي توفي فيه ؛ صادفنا من نفسه نشاطاً وطيباً ، أو نشط بقدومنا - لست أدري - وفاضت قريحته ، فطالت الجلسة وطابت حتى استغرقت نحو ثلاث ساعات ، والخادم العجوز يقاطعه حيناً بعد حين إشفاقاً على صحته من طول الجلوس وكثرة الحديث ، فيعتذر ويوقفه ، واسترسل في الكلام وأفاض وتحدث عن كل موضوع ؛ تحدث عن الشعر العربي القديم ، وتحدث عن اعجابه بصدقه ، وواقعيته ، وما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية ، وتمثل ببعض أبيات الحماسة ؛ وذكر أن الاسلام أثار في أتباعه روح الكفاح وحب الواقع ، وأن علوم الطبيعة تلتقي مع الاسلام على الجد والعمل والبعد عن البحوث الفلسفية التي لاجدوى فيها ، وقد ظلت هذه الروح متغلغلة في المجتمع الاسلامي قرنين ، فقد بقي متمسكاً بالعقيدة والعمل والسيرة والخلق ، حتى طغت عليه الفلسفة الاغريقية ؛ وتحدث عن الفلسفة الإلهية ، وكيف شغلت الشرق واستهلكت قواه ، وذكر أن اوروبا انما نهضت وملكت العالم لمّا ثارت على هذه الفلسفة ما بعد

---

(١) استاذ الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقاً ومن كبار العلماء والمثقفين .

الطبيعة ، وبدأت تشتغل بعلوم الطبيعة المجدية المنتجة ؛ ولكن قد حدث وثار من المسائل في هذا العصر ما يخاف معه ان ترجع اوروبا القهقرى وذكر أن العقل العربي كان أقوى على إساغته الاسلام إساغة صحيحة وأجدر بحمل أمانته ، وقد أصيب الاسلام في ايران بما أصيبت به المسيحية في اوربا ، فقد أثرت العقلية الآرية في كلتا الديانتين .

وتحدث عن التصوف وانتقد اغراق بعض رجاله في التخيل والتطرف ، وتطرق الحديث الى تواجد بعض المتصوفين وطربهم للسماع ، فقال ان الصحابة كان يتملكهم الطرب والاهتزاز والأريحية على صهوات الجياد في ساحة الجهاد .

وتحدث عن التجديد الاسلامي في الهند فأثنى على الشيخ أحمد السرهندي والشيخ ولي الله الدهلوي والسلطان محي الدين أورنك زيب ؛ وقال انني أقول دائماً : لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند وحضارتها وفلسفتها الاسلام .

وتحدث عن باكستان[1] وقال : إن أمة لا تملك أرضاً تستند إليها لا دين لها ولا حضارة ، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة . وان باكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة الهندية ، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية ، وأشار الى نظام الزكاة وبيت المال في الاسلام .

وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند ، قال : أشرت على بعض أمراء المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الاسلام في غير المسلمين ، ونشر الثقافة والآداب الاسلامية في المسلمين ، واحياء اللغة العربية وأدبها في

---

(١) لا يغربن عن البال ان باكستان انما كانت فكرة وحلما يومئذ وانما قامت سنة ١٩٤٧ م بعد وفاة صاحب فكرتها بنحو عشر سنين .

هذه البلاد ، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عـالمي ، وانشاء صحيفة انجليزية عالميـة تدافع عن قضايا المسلـين ، حتى يحسب لهم حساب ويرهب جانبهم ، وتكون لهم مكانة عالمية تخشى وترجى ؛ وان في ذلك صيانة لدولتهم وضماناً لكيانهم . ولكن الامراء المسلمين لم يعرفوا أهمية المسألة ، ودقة موقفهم ، والاخطار التي تحدق بهم . وكان يشكو قصر نظرهم ، وضعف تفكيرهم ، واشتغالهم بنفسهم [١].

ورأينا الدكتور راغباً في الحديث ، راغباً في بقائنا معه لوقت أوسع ، ورأينا من المصلحة ان نستأذنه في الانصراف حتى يستريح ، وسلمنا عليه وخرجنا من عنده ؛ وسافرت من لاهور ذلك اليوم أو من غد .

وأذكر أني استأذنته في ترجمة شعره الى العربيـة في ذلك المجلس فتكرم بذلك ، وأنشدته بعض قصائده من « ضرب كليم » ؛ وذكر محمد اقبال الاستاذ عبد الوهاب عزام وأنه ينوي ترجمة شعره .

وبعد ستة أشهر فوجئنا بنبأ وفاته في ٢١ من ابريل عام ١٩٣٨م. فصح العزم وانعقدت النية على ترجمة حياته وترجمة شعره . وكتبت في ذلك الى الاخ مسعود ، وكان يومئذ في « پتنه » عاصمة ولاية بهار ، وتبادلنا التعازي وأردنا ان نتعاون على هذه المهمة ، فأبدى استعداده وعزمه على ترجمة حياته ، وتقديم فكرته ، وحثني على ترجمة شعره ؛ وذكر أن قريحته لاتطاوعه في الترجمة . وشرعنا في العمل ، فكتب الاستاذ مقالة مؤثرة رقيقة في « الفتح » الغراء التي كان يصدرها الاستاذ محب الدين الخطيب من القاهرة ، وكتبت مقالة في ترجمة حياته أذيعت

---

(١) الغيت هـذه الامارات بعد التقسيم بجرة قلم ، وذهب الامراء و « أصحاب السمو » الذين لم ينتفع الاسلام والمسلمون بثروتهم وكنوزهم . « فـما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين » .

بعد سنين من محطة الاذاعة في الحجاز . وتوقف العمل لاشغال تعليمية وتأليفية مرهقة ، وكانت فترة طويلة دامت بضع عشرة سنة .

وفي عام ١٩٥٠ م سافرت الى الحجاز ومصر وسورية ونشطت في هذه الرحلة ، التي استغرقت أكثر من عام ، لكتابة عدة مقالات عن اقبال وفكرته وشعره ، وألقيتها محاضرات في دار العلوم وفي جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة الآن) ومقالة كتبتها في دمشق عام ١٩٥٦ م في زيارتي الثانية لسورية . هي مقالة « محمد اقبال في مدينة الرسول » أذيعت من محطة الاذاعة السورية .

وفتر العزم لترجمة شعره ، خصوصاً وقد علمت ان الاستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عاكف على ترجمة شعره بالشعر . وهو من أجدر الناس بهذا العمل ، وأقدرهم عليه ، لجمعه بين الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامه الفكري مع اقبال وعقيدته ودعوته . وقدظهرت له عدة دواوين [١] ، وقد ذكر لي بعض الاصدقاء انها لاتؤثر في نفس القارىء ولا تثيرها إثارة الشعر الرقيق ، ولا تعطي صورة كاملة واضحة لفكرة اقبال ورسالته ، ولا تبرز شهرته وما قيل عنه . وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت ان ذلك لايرجع الى ضعف في الترجمة ، ونقص في العلم والفهم . وهذه الدواوين برهان ساطع على مقدرةالاستاذ عزام الغريبة على النظم العربي ، واقتداره على القوافي الصعبة ، ولكنه لم يكن محسنا الى نفسه ومواهبه ، يوم قرر أنه يترجم الشعر بالشعر؛ وذلك الذي أفقد شعر اقبال قوته وانسجامه ، وأفقد الترجمة بهاءها ورواءها ، وتأثيرها ؛ وأضفى على هذا العمل الادبي العظيم شيئاً من

---

(١) وهي « رسالة المشرق »و« ضرب الكليم » وقدترجم « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وشيئاً من « جاويدنامة » .

الغموض ، قد يحول بين القارىء وبين التذوق والتمتع بالشعر الجميل ، والمعاني الرقيقة . وكان الامثل للاستاذ عزام - وهو من أدباء العربية ومن كبار المنشئين فيها ، ومن البارعين في اللغـــة الفارسية من أبناء العرب - ان يتشرب فكرة اقبال ثم يصبها في القالب العربي كما فعل ذلك في بعض مقالاته التي ظهرت في « الرسالة » و « الثقافة » وكانت بارعة مؤثرة . ولكل لغة جو خاص ، ونفسية خاصة ، ومنهج تفكير ، وأسلوب تعبير ، وتشبيهات ، ومجازات تتعلق ببيئها ومجتمعها وتاريخهـا ومزاجها ومواسمها وفصولها ، اذا ترجمت حرفياً فقدت جمالها ومعناها، ولم تؤد رسالتها .

وعلى كل فان عمل العلامة الدكتورعبد الوهاب عزام مأثرة اسلامية ادبية جليلة ، تستحق كل تقدير واعجاب وشكر واعتراف . وهي تدل على عـــلو كعبه في اللغة العربية ، وعلو همته وجودة قريحته ، واخلاصه ومثابرته ، وحبه للاسلام ، والفكرة الاسلامية . وقد كان من سعادة الدكتور محمد اقبال ان يرزق مترجماً وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب في علمه وفضله ونبالته ونزاهته ولا شك ان روح اقبال مسرورة شاكرة لعمله جزاه الله افضل جزاء وكافأه على هذه المبرة خير مكافأة .

ولعل الامد كان يطول على هذه الفترة ، وفتور الهمة في الترجمة ، وقـد أشغل عنها لشواغل وعوائق كثيرة ، ولكن حدث ماجدد في النشاط وحرك العزم ، وذلك اني قرأت في مجلة « المسلمون » التي تصدر من دمشق كلمة رقيقة مخلصة لأديب العربية الكبير وكاتبها القدير ، الاخ الاستاذ علي الطنطاوي ، يحثني فيها على ترجمة بعض قصائد إقبال ليعرف بهامكانة الرجل ، وقوة شاعريته وسمو رسالته ، ويقول في كتاب مفتوح وجهه الي" (... هل لك ان تختار من شعر اقبال مايجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، وتتجلى أسباب عظمته

فان كل ماقرأنا من كلامه مترجماً الى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلنا عليه) ... (فهل تضيف يا أخي ! يا أبا الحسن الى مآثرك هذه المأثرة ، فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة او تحمل اليهم زهرات منه فتحسن بذلك الى العرب وباكستان والى الادب والاسلام)[1]

وقد صادف هذا الافتراح مني هوى ونشاطاً ، وأثار القريحـة ، التي خمدت وفترت من زمان ، فترجمت قصيدته البديعة « في مسجد قرطبة » في جلسة واحدة ، وشعرت باستعداد في نفسي ورغبة لذيذة في الترجمة ، لا أستطيع لها دفعاً ، وجاءت المقالات تترى . ونشرت في بعض المجلات العربية الاسلامية واقتصرت في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها المرحوم العلامة عبد الوهاب عزام بالتعريب . وكان لديوانه « بال جبريل » اكبر نصيب من هـذه التراجم . وقد رتبتها كما كتبت ونشرت ، إلا اني جعلت مقالة « في مـدينة الرسول » خاتمة هذه المجموعة ، لانها من شعره الاخير ، ولأن المدينة هي نهاية المطاف للشاعر المؤمن ، مهما طالت سياحته الفكرية .

اما بعد فإني لا أعتقد في اقبال عصمة ولا قداسـة ولا امامة ولا اجتهاداً في الدين ، ولا أبالغ في إجلاله والاستشهاد بأقواله ، كما يبالغ كثير من الكتاب المعاصرين ، والمؤلفين المتطرفين . اني أعتقد أن الحكيم السنائي ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومي كانوا أرفع منه مكانة بكثير ، في التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن ، والدعوة والعمل . وقد كانت له في محاضراته التي القـاها في المدراس أفـكار فلسفية وتفسيرات للعقيدة الاسلامية لا نوافقه عليها . ولا أعتقد - كما يعتقـد كثير من الشباب المتحمسين - أنه لم يفقه الاسـلام عالم مثله ، ولم يحط بعـلومه وحقائقه غيره . إنني لم أزل - والحق أحق

---

(١) المسلمون العدد الثالث المجلد السادس .

ان يقال - في كل دور من أدوار حياتي وثقافتي معتقداً انه لا يزيد على أن يكون تلميذاً من تلاميذ الثقافة الاسلامية النجباء الاذكياء ؛ درسها دراسة مخلصة ، وكان لا يزال في حاجة الى التعمق والرسوخ فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار[1] . وكانت في شخصيته الكبيرة النادرة جوانب ضعف لا تتفق مع عظمته العلمية ، وعظمة رسالته ، وشعره ، لم يجد وقتاً كافياً وجواً ملائماً لإكمالها وتسديدها .

إن جل ما أعتقده ان اقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر . أنطقه الله الذي انطق كل شيء . أنطقه كما انطق الشعراء والحكماء قبل عصره ، وفي غير عصره . إنني أعتقد انه كان صاحب فكرة واضحة وعقيدة جازمة ، عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها ، وعن خلود هذه الامة وصلاحيتها للبقاء والازدهار ، وعن كرامة المسلم وانه خلق ليقود ويسود ، وعن تهافت المبادىء والفلسفات والدعوات التي ظهرت في هذا العصر كالقومية والوطنية والشيوعية والرأسمالية . ووجدت فيه من وضوح الفكرة وشدة الاقتناع بها ، والتحمس لها ، والشجاعة في نشرها ، وفي نقد هذه الفلسفات ، ما لم أجده مع الاسف في كثير من رجال الدين لعدم اكتناههم بحقيقتها واطلاعهم على نواياها وأهدافها واسسها وتاريخها .

وأخيراً لا آخراً وجدته شاعر الطموح والحب والايمان ، وأشهد على نفسي اني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفي وشعرت

---

(١) ولم يزل يستفيد فعلا من العلامة الكبير انور شاه الكشميري والاستاذ الكبير العلامة السيد سليمان الندوي. ورسائله اليه والى صديقنا الجليل الاستاذ مسعود الندوي تدل على سماحة نفسه وتواضعه وروحه العلمية .

بدبيب من المعاني والاحاسيس في نفسي وبحركة للحماسة الاسلامية في عروقي ؛ وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري .

يحملني على نشر هذا الكتاب في العربية ما أراه من خضوع الشرق الاسلامي العربي للفلسفات الغربية والحضارة المادية خضوعاً زائداً . قد بدأ هذا العالم العربي الاسلامي يتأرجح بين الجاهلية القديمة والجاهليـــة الجديدة . فاما قومية متطرفة وإما شيوعية ملحدة . وقد سيطرت على الادب والشعر النزعة التجارية او النزعة السياسية ، او فكرة المتعـــة والتسلية . والاديب الذي يعرف رسالته ويخلص لها وينقطع اليهـــا ، ويسخر أدبه ومواهبه لمحاربة الجاهلية ومقاومة الثورة على الرسالات السماوية ، والقيم الخلقيـة التي انتشرت في العـالم الاسلامي ، وصدّ تيار الردة الفكرية ، التي اكتسحت الطبقة المثقفة ، يكاد يكون مفقوداً .

في هذا الجو المكهرب بالفكر الغربي ، وفي هذا العالم المتجاهل او المتناسي لقيمته ، وقوته ، ورسالته ومكانه في قيادة الامم ، تزداد قيمة شاعر يولد في بلاد بعيدة عن مهد الاسلام ، في سلالة برهميـــة قريبة العهد بالهداية الاسلامية ، في بيئة كان يحكم فيها الانجليز وتسود فيها الثقافة الغربية ؛ يدرس العلوم العصرية ، والآداب الغربيـــة الى أقصى حدودها ، وفي أعظم مراكزها ، ثم يشتد إيمانه بالرسالة المحمدية ، وحبه وغرامه بشخصية محمد ﷺ ، وثقته بهـــذه الامة ومواهبها ومستقبلها ، وتشتد حماسته للاسـلام ، ويشتد إنكاره لأسس الفلسفة الغربية والحضارة الاوروبية ، ويستخدم عبقريته الشعرية ومواهبـــه الأدبية في نشر عقيدته وشعوره ودعوته . ويكون خـير مثال للشاعر المؤمن والعالم الداعي والفيلسوف الحصيف . ويحدث هزة في الافـكار والآداب في قطر من أعظم الاقطار الاسـلامية وأوسعها . ويتجاوز تأثيره الى اقطار بعيدة ، ويسمع له صدى في العالم الاسلامي .

ورأينا انها خير هدية نهديها الى الجيل الاسلامي الجديد والى الشباب العربي الناهض . فنتقدم بهذا الكتاب عسى ان يجدوا فيـــه ما يحرك العزم ، ويفتق القريحة ، ويلهب الغيرة ، ويتجه بالادب والفكر اتجاهاً جديداً . والله من وراء القصد .

المجمع الاسلامي العلمي	ابو الحسن علي الحسني الندوي
نـدوة العلماء لكهنـؤ	٣ ربيع الاول عـام ١٣٧٩ ﻫ

شاعر الإسلام : الدكتور محمد إقبال

حياته وثقافته ، شاعريته وانتاجه

ولد محمد اقبال في « سيالكوت » مدينة في مقاطعة پنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من اوسط بيوتات البراهمة في كشمير . أسلم جده الأعلى قبل مائتي سنة . وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد اقبال في مدرسة انجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الاخير بامتياز . ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالاستاذ السيد مير حسن ، استاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ؛ فأثر في الشاب الذكي كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الاسلامية ، ولم ينس اقبال فضله الى آخر حياته

ولما قضى وطره من الكلية سافر الى لاهور ، عاصمة پنجاب ، وانضم الى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الاخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين ، واخذ شهادة (B.A.) [١] بامتياز . وفي لاهور اتصلت اسبابه بالاستاذ الانكليزي الشهير « سرتما مس ارنولد » صاحب كتاب « دعوة

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الانجليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها .

الاسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الاسلامية في علي ّ كره سابقاً ، وبالاستاذ عبد القادر المحامي ، والاديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد وعضو مجلس الهند سابقاً ، وكان انشأ اول مجلة علمية أدبية في لغة أردو ، اسمها « مخزن » . وكان اقبال نظم قصيدته الاولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب انجليزية الافكار ، ونشرها الاستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١ م . ونظم عدة قصائد ادبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في اندية الشعر والادب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع . وفي هذه المدة أخذ محمد اقبال درجة (M.A.) [١] في الفلسفة بامتياز ونال وساماً وعيّن على اثره استاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور . ثم استاذاً للانجليزية والفلسفة في كلية الحكومة التي تخرّج منها ؛ وشهد بكفاءته وغزير علمه الاساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف . ثم سافر الى لندن سنة ١٩٠٥ م ، حيث التحق بجامعة « كامبردج » واخذ شهادة عالية في في الفلسفة وعلم الاقتصاد . ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات اسلامية ، اكسبته الشهرة والثقـــة . وتولّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب استاذه أرنولد . ثم سافر الى المانيا واخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ثم رجع الى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ؛ وانتسب الى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصص في المادتين ، ورجع الى الهند سنة ١٩٠٨ م سالما غانما . ولما مرّ بصقلية في طريقه الى الهند ، سكب على ترابها دموعا ، وقال قصيدة ، افتتحها بقوله : « إبك أيها الرجل ! دما لا دمعا ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

ومن دواعي العجب ان كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

---

(١) وهي تعادل « الماجيستر » في مصر .

اثنين وثلاثين عاما من عمره . وأقـام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم . واشتغل الشاعر الفلـسفي والاقتصادي الخبير والسياسي الحاذق في عدة لغات بالمحاماة ؛ لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي اكثر اوقاته وجل همـــه في تأليف الكتب وقرض الشعر . وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الاسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ، ومنهـــا قصيدة « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها الى الله عـلى لسان المسلمين ماحل بهم ، وذكر اعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهـــاد والاصلاح . ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ؛ بيّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم امر الدنيا تبريراً لمـا جزوا به من الخزي والهوان . وسرعان ماسارت بهما الركبان ، وتغنى بهما الاطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء وهمـا عندهم أشهر من « قفا نبك » . وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الاسلوب والمعاني والغرض . وقال « النشيد الوطنى » و « انشودة المسلم » وكلاهما سار سير المثل ، وصار الاول النشيد الوطني الوحيد الذي لاتزال تزتج به الحفلات المشتركة الشعبية في ، الهند والثانية انشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ م . وما يوم حليمة بسرّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، وجرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه ، وهاج هائجه ، وجعلت منه عدوّا لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد ، كلها دموع حارة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوربيين . وتتجلى هذه الروح في جميع مانظم وقال في هذه الفترة . فمن قصائده « البـلاد الاسلامية » رد على الوطنية ، ودعوة الى الجـــامعة الاسلامية ،

و « ياهلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) ومحاصرة أدرنة و « الصديق» و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى الى الرسول » وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجون الى اوروبا ويشدون اليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ولا يعرفونك » و « هدية الى الرسول» وقد قال فيها « أنه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ ماذا حملت الينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال : إنها لاتليق بمقامكم الكريم ولكنني جئت بهدية ، وهي زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤ م وحدث ماحدث فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً . وحكيما فيلسوفا ، يتكهن بالاخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحِكم ، ويشب من حماسته نيراناً ، ويفجر بإيمانه وثقته أنهاراً : وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته . وفي تلك المدة نظم غرّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قِطع ، منها : « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الاجير » و « عالم الاسلام » و « طلوع الاسلام » وكلها آية في الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة . أما « طلوع الاسلام » فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الاسلامي في القوة والانسجام . وقد طبع سنة ١٩٢٤ م اول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان اقبال الناس عليه عظيما ، وحظي من القبول مالم يحظ به شعر شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير.

ثم بدأ العهد الاخير الذي انتهى الى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعا ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته فنشر له عدة كتب بالفارسية . وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الاسلامية التي تلي اللغة العربية في الاهمية والانتشار في العالم الاسلامي ، ويتكلم بها قطران مهمان ايران وافغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان وروسيا وتركيا . ونشر مجموعتين بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي : « أسرار خودى » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودى » (أسرار فناء الذات) و « پيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « پس چه بايد كرد أي اقوام شرق » (ماذا ينبغي ان تعمل الشعوب الشرقية) و « مسافر » . و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالاردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم (Reconstruction of Religious Thought in Islam) ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج . وقد اعتني بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيما ، وعلقوا عليها أهمية كبيرة . وترجم اكثر كتبه الى الانكليزية والفرنسية والالمانية والطليانية والروسية ، وممن تولى هذا النقل الاستاذ الانكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالانجليزية « أسرار خودى » و « رموز بيخودي » وألفت في المانيا وايطاليا مجامع وهيئات باسمه ، لدرس شعره وفلسفته . وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الاسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠ في « إله آباد » ، وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة . وانتخب عضوا في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً

للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٢ - ١٩٣١ م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا واسبانيا وايطاليا ، فزار القطرين الاخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الاسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لاول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزارا ؛ وتذكر العرب الاولين ، الذين حكموا هذه الارض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم . وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو اليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه الى ذلك . فقال الشعر الرقيق ، الذي يعد من القطعة الادبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده [١] . وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ . وقابله السنيور موسوليني وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلا . وسألته حكومة فرنسا ان يزور مستعمراتها في شمال افريقية ، ولكن رفض الشاعر الاسلامي الغيور دعوتها ، وأبى ايضاً ان يزور جامع باريز ، واساتذته وقال ان هذا ثمن بخس لتدمير دمشق ، واحراقها . واثناء اقامته بأوروبا اقيمت له عدة حفلات تكريم ، منها حفلة تكريم اقامها له اصدقاؤه وأساتذته في جامعة كامبردج وجامعة لندن ، وحفلات اقامتها جمعية ارسطو وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما . وفي طريقه الى الهند عرج على القدس ، واشترك في المؤتمر الاسلامي الشهير ، وقال في اثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق »[٢]

---

(١) تظهر هذه القصيدة في هذه المجموعة .. انظر « في جامع قرطبة »

(٢) ظهرت هذه القصيدة في هذه المجموعة بعنوان « في فلسطين »

وفي سنة ١٩٣٢ م لبّى دعوة السلطان الشهيـــد نادر خان ملك افغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر راس مسعود حفيد سرسيد احمـــد خان ورئيس جامعة عليگره الاسلامية ، والاستاذ الكبير السيد سليمان الندوي وتحدث اليه الملك الفقيد طويلا ، وافضى اليه بذات صدره وبكيا طويلا . ولما زار قبر السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه وافتضح باكيـــاً ، وقال قصيدة حكيمة بديعة [١] وعلى اثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وكان الشاعر يشتكي أدواءاً ، يغلبهـــا وتغلبه ، وانحرفت صحته اخيراً ، وظل أياماً طويلة رهين الفراش . ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب ، والمقالات ، ويقابل الاصدقاء والزوار والعواد ويحادثهم في شؤون اسلامية وعلمية . ومما نشر له في هذه الايام ، مقالة مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس . ومما قال قبل وفاته بأيام : جنة لارباب الهمم ، وجنة للعُباد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فان في سبيل الله جنة أيضاً . وقـــال قبل وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النغمة التي ارسلتُها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية . قد أظلني موتي وحضرتني الوفاة فليت شعري ! هل حكيم يخلفني ...؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « انا لاأخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم ان يستقبل الموت مبتسماً » . وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الاسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الاخير في حجر خادمه القديم ، على حين غفلة من العوّاد والاصدقاء والتلاميذ والاخوان في سائر انحاء العالم الاسلامي . وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارة ونوراً ، قبل ان تطلع شمس ٢١ ابريل ١٩٣٨ م [٢] .

---

(١) انظر : « في غزنين »

(٢) اذيع هذا الحديث من محطة البلاد العربية السعودية عام ١٩٥١م .

العوامل التي كونت شخصية محمد اقبال (١)

سادتي واخواني ! يسرّني جداً أن اتحدث اليكم عن شاعر الاسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد اقبال ، ويزيدني سروراً واغتباطاً ان يكون هذا الحديث في مركز تعليمي وأدبي كبير كدار العلوم. وبهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم والمدارس التي تخرج فيها والعوامل التي كونت شخصيته .

المدرسة الاولى التي تخرّج فيها محمد اقبال :

لقد تخرج محمد اقبال في مدرستين ، أما المدرسة الاولى فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلب في فصولها ودروسها مابين الهند وانجلترا والمانيا ، ويقرأ على اساتذتها البارعين ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الاسلامي في ثقافته الغربية . أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة ، واجتماع ، واخلاق ، واقتصاد ، وسياسة ، ومدنية غاية مايمكن لغربي متخصص ، فضلًا عن شرقي متطفل ؛ وبلغ بدراسته الى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة . هذا الى توسع في الآداب الانجليزية والالمانية والشعر الغربي في مختلف ادواره وعصوره . ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

---

(١) من محاضرة ألقيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ من جمادي الثانية ١٣٧٠ ﻫ الموافق ٢٨/٣/١٩٥١ .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد ، واكتفى بثمار هــذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الادب الاسلامي والتاريخ الاسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محل الصدارة العلميــة والزعامة الفكرية والعبقرية الاسلامية ، ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال ، لايحتله الانسان بمجرد الدراسة والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والانتاج . أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها لما زاد على ان يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة أو عــلم الاقتصاد أو في الادب أو في التاريخ ؛ أو مؤلفاً كبيرا ، أو محاضراً بارعا في العلوم العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة أو وزيراً في دولة . وصدقوني أيها الاخوان ! أن لو كان ذلك لطواه الزمان في من طوى من كبار العلماء والادباء والشعراء والمؤلفين والقضاة والوزراء . ان الفضل في عبقرية اقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب، يرجع الى المدرسة الثانية التي تخرّج فيها .

اني لأراكم أيها الاخوان ! تذهبون كل مذهب في تشخيص هــذه المدرسة ، والاهتداء الى موقعها واني لأراكم تتطلعون الى معرفة اخبارها . فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظــيم ؟ وما هي العــلوم التي تُدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهــد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك أنهم من كبار المــُربّين واعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ؛ وما هي شروط هذه المدرسة وما تكاليفها ؟ وأظن ان لو علمتم بوجودهــا ومحلها لأسرع كثير منكم اليها والتحق بها .

انها مدرسة ماخاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرّج منها ؛ إنها مدرسة لم تخرّج إلا أئمة الفن المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والاصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلّفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا . وتفصيل ماأجملوا ، فيتكوّن من كلمتهم كُتّاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسة ماتُعلّم التاريخ بل تخلق التـاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وماتنتخب الآثار بل تنتج الآثار ؛ انهـا مدرسة توجد في كل مكان وزمان ، وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض.

ولا أمتحن صبركم أيها الاخوان ! طويلاً ؛ انها مدرسة داخليـة تولد مع الانسان ، ويحملها الانسان معه في كل مكان . هي مدرسة القلب والوجدان . هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية وتمدها القوة الروحية .

قد تخرّج محمد اقبال في هذه المدرسة ، كما تخرج كثير من الرجال الموهوبين ، وحدث عنها كثيراً في شعره ، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته . وصرح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وانه لولا هذه المدرسة وتربيتها لمـا ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ؛ وقد حدّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً وذكر فضلهم عليه .

العامل الاول :

فممن يرد الفضل إليه في هذه المدرسة « الايمان » ، الذي لم يزل مربياً له ومرشدا ، ولم يزل مصدر قوته ومنبـع حكمته . وليس ايمان محمد اقبال هو الايمان الجاف الخشيب ، الذي هو مجرد عقيدة أو

تصديق بسيط ، بل هو مزيج اعتقـــاد وحب ، يملك عليه القلب والمشاعر والعقل والتفكير والارادة والتصرف والحب والبغض . وقد كان شديد الايمان بالاسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الاخلاص والاجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبّه ؛ مقتنعاً بأن الاسلام هو الدين الخالد الذي لاتسعد الانسانية إلا به ، وان النبي ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويرجع محمد اقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمـــام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف الى الاتصـال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبه العميق له ، ولا شك ان الحب هو خير حاجز للقلب ، وخير حارس له . اذا احتل قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه غيره ، او يكون كريشة في فلاة ، او يعبث به العابثون ، يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية ان يبهر لبّي ، ويعشي بصرى ، وذلك لأني اكتحلت باثمد المدينة » . ويقول : « مكثتُ في أتون التعليم الغربي وخرجتُ كما خرج ابراهيم من نار نمرود» . ويقول : « لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لاأخافهم فاني احمل اليد البيضاء . ان الرجل اذا رزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنى عن المـــلوك والسلاطين . لاتعجبوا اذا اقتنصتُ النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فاني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « اسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الامة الاسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبع بتعاليمه ، والتفاني في حبه . ولما ذكر النبي ﷺ اندفع

الشاعر بمدحه وارسل النفس على سجيتها فقال أبياتاً لاتزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني . يقول : « ان قلب المسلم عامر بحب المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ان هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير . ان هذا السيد الذي نام عبيده على أسرّة الملوك كان يبيت ليالي لايكتحل بنوم . لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمة ، ووُجد دستور ، ووجدت دولة . اذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، واذا كان في الحرب فسيفه يقطرُ دماً . لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين . بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أم ولم تنجب مثله الانسانية . افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً . كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوان واحد . جاءته بنت حاتم اسيرة مقيدة ، سافرة الوجه ، خجلة مطرقة رأسها ، فاستحيى النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه .

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم . لطفه وقهره كله رحمة ، هذا بأعدائه ، وذاك بأوليائه . الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال لاتثريب عليكم اليوم . نحن المسلمين من الحجاز والصين وايران وأقطار مختلفة ، نحن غيض من فيض واحد . نحن أزهار كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة . لماذا لا أحبه ولا أحن اليه ، وأنا انسان ، وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنت اليه سارية المسجد . إن تربة المدينة أحب اليّ من العالم كله ، انعمْ بمدينة فيها الحبيب » .

ولم يزل حب النبي ﷺ يزيد ويقوى مع الايام ، حتى كان في آخر عمره اذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه أو ذكرت المدينة — على منوّرها ألف سلام — فاضت عينه ، ولم يملك دمعه . وقد ألهمه هذا

الحب العميق ، معانٍ شعرية عجيبة ، منهـا قوله ، وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غني عن العـالمين وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ؛ وإن كان لابد من حسابي ، فأرجوك يارب أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ ، فإني استحي ان انتسب اليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي »..

وكان محمد اقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه . يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لاتساوي هـذا الايمان البسيط . يقول في بيت : « ان الفقير المتمرد على المجتمع - يشير الى نفسه - لايملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لاإله الا الله ، محمد رسول الله » . وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لاينتفع بكنوزه » .

هذا هو ايمان محمد اقبال أيها السادة ! وحبه . ومن تتبع التاريخ عرف ان الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعـلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعـاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصية الفذة ، والعبقرية النادرة ؛ واليه يرجع الفضل في غالب عجائب الانسانيـة ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ؛ واذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم ، واذا تجردت منه أمـة كانت قطيعاً من غنم ، واذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفى فحسب ، واذا تجرد منـه كتاب كان مجموع أوراق وحبراً على ورق ، واذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكلا بلا روح ، واذا تجردت منه مدنية أصبحت تمثيلًا لا حقيقة فيه ، واذا تجردت منه مدرسة او نظـام

تعليم ، اصبح تقليداً او تكليفاً لا متعة فيـــه ، ولا حافز له ؛ واذا تجردت منه حياة كلـّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختنقت المواهب . هذا هو الحب الصادق ، الذي يتجلى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، او خوارق الشجاعة والقوة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراءَ الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرد بذلك على المجتمع . هذا هو الحب الذي يدخل بين الطين والماء والحجارة والآجرّ ، فيجعل منها آثاراً خالدة ، وتحفة فنية ؛ كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ؛ وما من أثر من الآثار الباقية في الادب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم ، ان العلمـاء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وان الشعراء يتفاضلون بقـوة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقة المعاني ؛ وان المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والانتاج ؛ وان المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ؛ وان المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة والحكمة ، واللباقة ؛ انمـــا يتفاضل الجميع بقوة الحب ، والإخلاص لغايتهم اذا فاق أحدهم الآخر فانما يفوقه ، لأن الغاية او الموضوع حل في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيـه شخصيته ، فاذا تكلم تكلم عن لسانه واذا كتب كتب بقلمـــه ، واذا فكر فكر بعقله ، واذا أحب او أبغض فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة ايها السادة ! على الانسانية جناية عظيمة ، إذ قضت على هذه العاطفة ، التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، او الحب الجنسي ، والغرام المادي ؛ ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها ، أن تفهم ان هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً ، هو أقوى من هـذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية - وأعني بها نظام التعليم الحديث - الى الجيل الجديد ، اذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالا ما ، ولم تحسن توجيه القلوب ، واشعالها بحرارة الايمان وحياة الوجدان . فأصبح العالم العصري أشبه بجهاد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ؛ انما هو دوامة جامدة ، تديرها يد قاهرة ، او ارادة قاسرة .

فاذا رأيتم أيها السادة ! أن شعر اقبال من نوع آخر ، غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ؛ هذا شعر تهتز له المشاعر ، وتتوتر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطم السلاسل ، وتفك الاغلال ، وتتمرد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ؛ شعرٌ اذا قرأه الانسان في لغة الشاعر ، أحسّ بأنه قد مرّ به تيار كهربائي فهزه هزاً عنيفاً ؛ اذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا انه ليس إلا لأن الشاعر قويّ الايمان ، قوي العاطفة ، جيّاش الصدر ، فياض الخاطر ، ملتهب الروح ؛ قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها واشعالها فيه .

العامل الثاني :

اما الأستاذ الآخر الذي يرجع اليـــه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ، فهو استاذ كريم لا يخلو منـــه بيت من بيوت المسلمين ؛ ولكن ليس الشأن في وجود الاستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ؛ انما الشأن في معرفته ، وتقديره ، وإجلاله ، والإفادة منـــه ، والا لـكان ابناء البيت ، ورجال الاسرة ، وأهل الحي أسعد بعالمهـــم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم . ولكن بالعكس من ذلك رأينا ان العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ! ضائع في بيته ، مهجور في داره ، يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته افراد اسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لاتذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الاخوان ! فذلك الاستاذ العظيم هو القرآن الكريم ، الذي أثر في عقلية اقبال وفي نفسه مالم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية . ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبالَ رجل ، حديث العهد بالاسلام ، فيـه من الاستطلاع والتشوق ماليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب ، فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار . وقد وصل هذا المهتدي اليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب . كان سرور محمد اقبال باكتشاف هـذا العالم الجديد من المعاني والحقائق اعظم من سرور « كلمبس » لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه . أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد ، فكانوا ينظرون الى « كلمبس » واصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح ، فانهم لايجدون في هذا العالم شيئا جديداً .

لقد كانت قراءة محمد اقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس

ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن ، واستطعامه إياه . وقد حكى قصته لقراءة القرآن . قال : « قد كنت تعمدت أن اقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني مــاذا أصنع ؟ فأجيبه باني أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فاجيبه جوابي . وذات يوم قلت له : مابالك يا أبي! تسألني نفس السؤال وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لايمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ » فقال : إنما أردت أن أقول لك : ياولدي، اقرأ القرآن كأنما نزل عليك » . ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من انواره مااقتبست ومن درره مانظمت .

ولم يزل محمد اقبال الى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه ،ويجوب في آفاقه ؛ فيخرج بعلم جديد ، وايمان جديد ، واشراق جديد ، وقوة جـديدة . وكلما تقدمت دراسته ، واتسعت آفاق فكره ، ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد ، والعـلم الابدي وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقدة ، وجواب الاسئلة المحـيرة ، وانـه دستور الحيـاة ، ونبراس الظلمـات ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين الى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ،ودراسته والاهتداء به في مشاكل العصر ، واستفتائه في أزمات المدنية ، وتحكيمه في الحياة والحـكم ؛ ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكـتاب ، الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخــرين . يقول في مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم لاتزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعلم ؛ ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً . إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك ، لا اتصـال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتُقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولة . فواعجبا ! قد

أصبح الكتابُ الذي أنزلَ ليمنحك الحياة والقوة ، يُتلى الآن لتموت براحة وسهولة »[1] .

وقد أصبح محمد اقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر ، لا يفضّل على هذا الكتاب شيئا ، ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل في العالم ، وأعظم الرجال علما وعقلا ؛ ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك افغانستان الى كابل ، ونزل ضيفا عليه أهدى محمد اقبال الى الملك نسخة من القرآن ، وقدمّها اليه قائلا : « ان هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان عليّ فاتح خيبر » . فبكى الملك وقال : لقد أتى على نادر خان زمان ، وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب »[2] .

العامل الثالث :

والركن الثالث ايها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والإعداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها وقد عامل نفسه بما نصح به غيره في قصيدة . يقول فيها : «انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سر الحياة . ماعليك اذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن انصف نفسك ياهذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ماظنك بعالم القلب ، هو كله حرارة ، وسكر ، وحنان ، وشوق ؛ أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال . إن ثروة القلب لاتفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل . إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الافرنج ولا اختلاف الطبقات ، لقد

---

(١) ارمغان حجاز

(٢) مثنوي مسافر

كدت أذوب حياءاً ، وتندى جبيني عرقاً إذ قال لي حكيم : اذا خضعت لغيرك ، أصبحت لاتملك قلبك ولا جسمك »[1].

وقد كان اقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ؛ يرى أن العبد يسمو بها الى درجة الملوك ، بل يعلوهم اذا كان جريئاً مقـداما . يقول في قصيدة : « إن الانسان اذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بآداب هذه المعرفة انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . ان ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، افضل من أكبر ملوك العـالم . إن الصراحة والجرأة من اخـــلاق الفتيان ، وإن عباد الله الصادقين لايعرفون أخلاق الثعالب . » وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لايقبل رزقاً اذا قيد حريته . يقول في نفس القصيـدة : « يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران[2] » .

وكان اقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته - في غير صلف وغرور - فيضن بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره . يقول في مقطوعة : « لك الحمد يارب ! إذ لست من سقط المتـاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين . لقـــد رزقتنى حكمة وفراسة ؛ ولكني أحمدك على أني لم أبعها لملك من الملوك[3] . » ويقول مفتخراً : « إني من غير شك فقير قاعـد على قارعة الطريق ، ولكني غني النفس أبي » . وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة ، يقول فيها : « اذا لم تعرف رازقك ، كنت فقيراً الى الملوك ، واذا عرفته ، افتقر إليك

---

(١) بال جبريل
(٢) بال جبريل
(٣) أيضاً

كبار الملوك . إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتل للروح ، وأنت مخير بينهما . اذا شئت اخترت القلب ، واذا شئت اخترت البطن [١] » . ولا شك أن محمد اقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور اذا جرحت كرامته ، وامتحنت عفته . قدّم إليه رئيس وزارة في دولة ، في عيد ميلاد محمد اقبال ، هدية محترمة من النقود ، فرفضها ، وقال : « إن كرامة الفقر تأبى عليّ أن اقبل صدقة الأغنياء » . وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في افريقيا الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة ، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات . فأشير عليه بذلك ، فرفضها ، وقال : « مادام هذا شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي » .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديدَ الاحتفاظ بقوته ومواهبه ؛ يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة في هذه الحياة ، وليس له ان يضع نفسه محل الشاعر ، الذي ليست له رسالة ، والنظامين الذين ينظمون في كل مناسبة . فاذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه . يقول في أبيات وجهها الى رسول الله ﷺ : « إني لأشكو إليك ياسيد الأمم ! إن أصدقائي يعتقدون أني شاعر نظّام ، فيقترحون عليّ اقتراحات » . ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري ياسيدي رسول الله ! انك تأمرني ان أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون أرّخ لموت فلان وفلان ، فماذا أفعل ؟! » .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الاسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري

---

(١) بال جبريل

والهيام الأدبي ، اللذين يصاب بهما أدباؤنا وشعراؤنا وكتابنا وعلماؤنا ، فينتجعون كل كلأ ، ويهيمون في كل واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ؛ ويمدحون كل شخص ، ويظلّون ، الى آخر حياتهم ، لايعرفون أنفسهم ولا يعلمون رسالتهم . أما الدكتور محمد اقبال ، فكان من توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الاسلام والمسلمين في الهند ، أنه عرف نفسه في أول يوم ، وقدّر مواهبه تقديراً صحيحا ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وايجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والايمان برسالتهم ، والطموح الى القوة والحرية والسيادة . كان شاعراً مطبوعا ، حتى لو أراد أو أريد ان لايكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر وغلبه . كان سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ . وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ؛ وكان شاعراً فناناً وصناعاً ماهراً سلّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجو . فما من شاعر ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة والتراكيب والمعاني والافكار والاغراض . وهو من أفراد شعراء العالم في التفنن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات . وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الانجليزي والالماني ، فضلا عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه . ولكن ليس هذا كل مايمتاز به محمد اقبال فعصره لايخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ؛ ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية ، وعبقريته الفنية لرسالة الاسلام . فلم يكن شاعر ملك ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ؛ بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ولطيب الازهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشاراً . فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد

حكمته ، يسبقها ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلّل لها صعاباً ، ويفتح أبوابا . وكان شعره من جنود الاسلام - ولله جنود السموات والارض - ولا أعرف أحداً أرضى الله ورسوله بشعره ، بعد حسان بن ثابت رضي الله عنه ، مثل ماأرضى هذا الشاعر المسلم . فأيقظ أمة ، وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحاً الى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الاسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لاترضى إلا بدولة تحكمها وتدير دفتها . أوجد بشعره القوي الهزاز القلق الفكري ، والاضطراب النفسي ، الذي عم هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الاسلامي بصفة خاصة فأصبحوا لايرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الاجانب ، حتى أصبحت في يوم من الايام الدولة المسلمة الحرّة حقيقة راهنة وواقعاً ملموسا .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل مايرجع الى هذا الشاعر الإسلامي . وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية والتذمر من الحاضر ، والتطلع الى المستقبل ، والقلق النفسي ، فاذا تم هذا كله ونضج ، قامت دولة ؛ فإن كان شعر قد أقام دولة ، وأحدث ثورة فكرية ، كانت سبب الانتقال من حياة الى حياة ومن وضع الى وضع ، فهو من غير شك ، شعر اقبال . وما ذاك أيها الاخوان ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره الصحيح لمواهبه وقوته ، ووضعها في محلها ، والغيرة عليها ، من أن تضيع في موضوعات تافهة ، وألفاظ فارغة ، وألوان زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية . وكم ضاع رجال من العبقريين واهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة مايحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » ،

وقتلوا انسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم « وما ظَلَمهُمُ اللهُ ولَكِنْ كانوا أنفسَهُمْ يَظْلِمون ».

العامل الرابع :

والمربي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع اليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدة المعاني ، وتدفق الافكار هو انه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرض للنفحات السحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه اليه ، ويتزود بنشاط روحي جديد ، واشراق قلبي جديد ، وغذاء فكري جديد ؛ فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الانسان فيه قوة جديدة ، وحياة جديدة ، ونوراً جديداً ؛ لأنه يتجدد كل يوم ، فيتجدد شعره ، وتتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السحر ، ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ، ومفكر ، لايستغني عنها اكبر عالم أو زاهد . يقول في بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن مع من شئت في العلم والحكمة ، ولكنك لاترجع بطائل ، حتى تكون لك انة في السحر » . وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به . يقول في مطلع قصيدة : « رغم ان شتاء انجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام » . وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً . يقول في بيت : « خذ مني ماشئت يارب ! ولكن لاتسلبني اللذة بأنة السحر ، ولا تحرمني

نعيمها » . بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الأنة السحرية والحرقة القلبية الى شباب الامة المتنعمين ، فتحرّك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم . يقول في قصيدة : « اللهم ! جرّح اكباد الشباب بسهام الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والاماني النائمة في صدورهم . بنجوم سماواتك التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزقْ الشباب الاسلامي لوعة القلب ، وارزقهم حبي وفراستي » . ويقول في قصيدة : « اللهم ! ارزق الشباب أنـّتي في السحر ، وانبتْ لصقور الاسلام القوادم والخوافي ، التي تطير بها وتصطاد ؛ وليست لي امنية يارب ! إلا ان تنتشر فراستي ، ويعم نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ونفسية شديدة ، ضد الموجة العقلية الاغريقية التي اجتاحت العالم الاسلامي في عصره ؛ وقد انتصر فيه للايمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصادق والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية ، التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي . والكتاب متدفق قوة وحياة ، زاخر بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والامثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ؛ وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الريان الذي يملي هذه المنظومة التي لاتزال فريدة في موضوعها في مكتبة الاسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القوي في تحرير الفكر ، من رق العقل ، والتقديس الزائد

القيم العقلية ، والخضوع للمادية الرعناء ؛ ويبعث التمرد على عالم المادية الضيق والتطلع الى أجواء الروح الفسيحة . وكان العالم في عصر محمد اقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي ، الذي جرف جميع القيم الروحية والخلقية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هـذه الحضارة بُعداً عن المعاني الروحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعـة . فاصبحت حضارة عقلية ميكانيكية . وقد قضى محمد اقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ؛ وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه المتجدد ، وقلبه الحار الفائض بالايمان . وفي هذا الاصطراع الفكري والاضطراب النفسي ، ساعده المثنوي مساعدة غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحل به كثيراً من ألغاز الحياة . ولم يزل محمد اقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثير من أبياته ، ويعزو اليه كثيراً من الحقائق والحكم . يقول في بيت يخاطب فيه احد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر عقلك سحر الافرنج ، فليس لك دواء إلا لوعـة قلب الرومي ، وحرارة ايمانه . لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم » . ويقول في بيت : « لقد أفدتُ من صحبة شيخ الروم ان كليما واحداً - يشير الى سيدنا موسى - هامته على راحته ، يغلب الف حكيم قد أحنوا رؤوسهم للتفكير » . وكان محمد اقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ويخلفه في مهمته العلمية والروحية ؛ وكان يشعر أن الشيخ لايزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقـد أشار الى ذلك إشارة لطيفة . يقول في قصيدة : «لم ينهض روميٌ آخر من ربوع العجم ، مع أن ارض ايران لاتزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز [1]

---

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين تبريزي ، شيخ الرومي في التصوف .

كما كانت ؛ إلا أن اقبال ليس قانطاً من تربته ، فاذا سقيت بالدموع أنبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصل كبير » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد اقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرّج فيها ؛ ولا شك انها اقوى من آثار المدرسة الاولى . فاذا كانت المدرسة الأولى منحته مفردات اللغات المتعددة ، وكميات من المعلومات وافـــرة ، فقد علمته المدرسة الثانية كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه ، وامته وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والايمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .



نظرة محمد اقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه (١)

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد اقبال الى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعف كثيرة ، وجوانب نقص عظيمة ، فتناولها بالانتقاد في صراحة وشجاعة ، ولفت اليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنايات المدرسة - ويقصد بها نظام التعليم الحديث - على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره . يقول في بيت : « لقد خرجت من المدرسة و « الزاوية » حزيناً ، لم أجد فيها الحياة ، ولا الحب ، ولا الحكمة ولا البصيرة » . ويقول في بيت آخر : « أما رجال المدرسة ففاقدوا البصر ، وميتوا الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصروا الهمة ، ضعيفو الطلب ، قليلو البضاعة » .

جنايات المدرسة :

ومن رأي محمد اقبال ، أن التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جناية عظيمة اذ اعتنت بتربية عقله ، وتثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه ، وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه ، وتهذيب نفسه ؛ فنشأ جيل غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ؛ قد تضخم و كبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين

---

(١) من محاضرة القيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ جمادى الثانية ١٣٧٠ هـ .

ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ؛ فالأول ضخم كبير ، والثاني ضعيف ناعم . وهو إذا وصف هذا الجيل ، الذي عاش فيه وعرفه عن كثب واتصال ، صوّره تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد . يقول :

« ان الشباب المثقف فارغ الأكواب ، ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً . هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال . ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم . يبني الاجانب من ترابهم الاسلامي كنائس وأدياراً ؛ شباب ناعم ، رخوٌ رقيق في الشباب كالحرير . يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون ان يفكروا في الحرية ، ان المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان . أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية فيمدون أكفهم الى الاجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك . إن المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يخبرهم بشرفهم ، ولم يعرّفهم بشخصيتهم . مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ، ولا يؤمنون بأنه لاغالب إلا الله . يشترون من الافرنج اللات ومناة . مسلمون ، لكن عقولهم تطوف حول الاصنام . إن الافرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لا تذوب بالقوارع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب ، يطوف حول الماديات . قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة ، وأفكارهم لا تساوي شيئاً ، حياتهم جامدة ، واقفة ، متعطلة .

ويذكر محمد اقبال ان السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقي

هو الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقي ونشأة الشباب المتحللة ، يقول في قصيدة : « لا أستغرب أيها الشباب المتعلم ! إنك حيي جبان ، فإن قلبك بارد لا لوعة فيه ولا حرارة ، ونظرك غير عفيف . إن الشباب المثقف الذي استنارت عينه بنور الافرنج قد يكون لبقاً في الحديث متشدقاً في الكلام ، ولكن عينه لاتعرف الدموع وقلبه لايعرف الخشوع » . ويرى محمد اقبال ان المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخلقي وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع الى المحل الوضيع يقول في بيت : « أشكو اليك يا رب ! من ولاة التعليم الحديث ، إنهم يربّون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الاسود تربية الخروف » .

ومن أسباب هذا الضعف النفسي هو العقل المثبط الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ويحذر من سوء العاقبة ويكبر الاخطار . يقول في بيت : « إن التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينازع العقل ، ويقول له : لاتعلل ولا تثبطني عن المغامرة . إن الاسرار التي حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى » . ومن أكبر أسباب هذا الضعف ، الذل والتقدير الزائد للمادة والنظر الى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم . يقول في بيت : « إن ذلك العلم سمّ ناقع للأفراد الذين ليست لهم غاية ، إلا حفنتان من شعير » (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف) .

مآخذه على التعليم :

ومن أكبر مآخذه على هـذا التعليم انه يبعث على التعطل وحب الهدوء والراحة ، ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء ، لاحركة فيه ولا اضطراب . يقول في بيت : « رماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فـان بحرك هادىء لا اضطراب في موجه » . وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم « افرنجية »

وحب الزينة ،يقول في قصيدة : «ان مقاعدك ايها الشباب المسلم ! افرنجية وزرابيك ايرانية ، واني أكاد أبكي دما اذا رأيتك في هذا الترف والبذخ. لاخير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة علي واستغناء سلمان » .

ومن مآخذه على هذا التعليم انه يحدث الفوضى الفكرية . يقول في بيت : « ان المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تترك الافكار بغير نظام وارتباط » .

ومن مآخذه على نظام التعليم العصري والمدرسة التي تمثله وتؤدي رسالته انها مصابة بالتقليد والجمود ومجردة من الابتكار والاجتهاد . يقول في قصيدة : «ان العالم أسير التقاليد والاوضاع ، وان المدرسة منحصرة في نطاق ضيق ، ياللأسف ! ان الرجال الذين كانوا يستطيعون ان يكونوا أئمة زمانهم اصبحت عقولهم بالية ، وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد عصرهم . »

ان الدكتور محمد اقبال لايرى ان هذا الجيل حي قائم بنفسه ، ويفكر بعقله ، انه يعتقد انه ظل" لأوروبا ،وان حياته عارية من الغرب. يقول في بيت : « يتراءى لك ان الشاب المتعلم حي يرزق ولكنه في الحقيقة ميت ، استعار حياته من الغرب » . ويخاطب المتفرنج ويقول : « ليس وجودك الا تجلي الافرنج ، لانك بناء قد بنوه . هذا الجسم العنصري فارغ من معرفة النفس ، فأنت غمد محلى بغير سيف . وجود الله غير ثابت في نظرك ووجودك انت غير ثابت في نظري » .

ومن رأيه ان نظام التعليم الغربي قد ضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم وجنى على رجولته جناية عظيمة ، فأصبح شباباً رخوا رقيقاً مائعاً أغير ، لايستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه . يقول في قصيدة

يخاطب فيها بعض المربين: «حيا الله شبيبتك ،ياهربي الجيل الجديد! ،ألق عليهم درس التواضع ، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية . علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال ،فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج . ان عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم ، فانظر كيف تعيد الثقة الى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية » . وكان لايغتفر هذه الجريمة يقول في موضع آخر: «انا لاأقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً ،الحكمة التي تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً » .



نظرة محمد اقبال الى العلوم والآداب

آراؤه في العلوم والآداب :

للدكتور محمد اقبال آراء حصيفة في العلوم والآداب والشعر ، هي عصارة تفكيره وتجاربه . منها ، أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله ، وقوة عظيمة ، يُحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع ؛ وثورة فكرية ، يضرب به الاوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، ويشعل القلوب حماسة وغضبا ، ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملأ النفوس قلقاً واضطرابا ، وتذمراً من الشر ، وتطلعاً الى الخير ؛ فلا بد أن يكون في قلم الاديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى ، وأن يؤدي رسالته في العالم ؛ وكل أدب استغل لجمع المادة أو ارضاء الاغنياء والاثرياء أو إثارة الشهوات ، أو على الاقل كان أداة للهو والتسلية ، والتذوق بالجمال والتغني به ، فهو أدب ضائع مظلوم ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ماوهب له . يقول في بيت : « أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ؛ ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر » . ويعتقد محمد اقبال أن الأدب لا يصل الى حد الإعجاز حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحي ، ويُسقى بدمه .

يقول محمد اقبال هذا ، ويرى بالعكس أن الادب في الشرق

الإسلامي قد أصبح تتحكم فيه المرأة ؛ فأصبح لايتحدث إلا عنها ، ولا يتغنى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصوّر إلا إياها ، ولا يرى في الكون إلا ظلها وجمالها ؛ وهذه عقيدة جديدة في « وحدة الوجود » التي يمكن ان تسمى « الوجودية الادبية » . وكأن الادب العصري ينادي بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو (لا موجود إلا الفتاة) . يقول محمد اقبال : « أسفاً للشعراء والرسامين وكتاب القصة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » . ولا شك انه تصوير صادق للاتجاه الادبي العام في الشرق الإسلامي ، واندفاع الادب المتهور وراء المرأة ، وهيامه بها ، وإعراضه عما سواها .

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأي خاص . فهو يرى أن الفلسفة لاتعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن الفلسفة التي تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتتلهى بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ولا تدخل في صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ، انما هي فلسفة منهارة لاتستطيع ان تعيش . يقول في بيت : « ان الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة » .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ونقدها ، والتفكير الطويل العميق ، الى اخفاق الفلسفة في حلّ مشاكل الحياة ؛ وانها صدفة لامعة خالية من اللؤلؤ ، وهو بمعزل عن الحياة والكفاح ، لاتساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً للحياة ؛ وان الدين هو الذي ينظم المجتمع ، وينور الطريق ، ويقدّم دستوراً للحياة ، وان سيدنا محمداً ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم . عرف الشاعر صديقاً له من الهاشميين قد أثّرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيرا ، وتزلزلت عقيدته الإسلامية . فكتب اليه محمد اقبال قصيدة ، يقول : « أنا رجل كما تعرف ، أنتهي في أصلي الى سُومنات (المعبد الوثني المعروف في

الهند) وكان ابي من عباد اللات ومنـــاة ، وإن اسرتي عريقة في البرهمية ؛ ولكن يجري في عروقك دم الهاشميين ، وتنتمي الى سـيد الأولين والآخرين ؛ وقد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي ، وجرت مني مجرى الروح . أنا ، وان كنت لاأحسن شيئا ، فلا شك اني نزلت في أعماق هذه الفلسفة ، وتغلغلت في أحشائها ، وبعد ذلك أقول : إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجابا للحقيقة ، وانها لاتزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة ؛ وان بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل . هـذا « هيجل » ، الذي تبالغ في تقديره ، إن صدفته خالية من اللؤلؤة وإن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام . لقـد انطفأت شعلة القلب في حياتك ايها السيد ! وفقدت شخصيتك ، فأصبحت أسيراً « لبرجسان » ان البشرية تريد ان تعلم : كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها ؛ ان بني آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستوراً للحيـــاة ، ولكن الفلسفة لاتساعدهم في ذلك . بالعكس من ذلك ، ان المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون . ان الدين هو الذي ينظم الحياة ، وانه لايكتسب إلا من ابراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك ايها السيد ! بتعاليم جدك ﷺ . الى متى يا ابن علي ! (رضي الله عنه) تقلد ابا علي (ابن سينا) ، اذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشي (يعني رسول الله ﷺ) خير لك من القائد البخاري (يعني ابن سينا) » .

وبالاجمال ان الدكتور محمد اقبال يرى ، أن نظام التعليم الحديث قد أخفق في أداء رســالته وأخفق في إنتاج جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادته العلمية وثروته الثقافية ويضع كل شيء في محله ، ويعيش حياة سعيدة مطمئنة . بالعكس من ذلك ، وجد جيل مثقف ثقافة عالية ، يعرف عن مجاهل افريقية والقطب الشمالي ، وعن حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً ، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلا .

ويسخر التجارة والكهرباء ،ويسخر الطاقة الذرية في الزمن الاخير ولا يملك نفسه وقوته . ويطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسمك ، ولا يحسن أن يمشي على الارض ؛ وما ذلك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه ، وفسد مزاجه ؛ وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟! يقول في قصيدة : « من الغريب ان من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح . وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره . ومن عكف على الالغاز يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر » .

تصوير للشباب المسلم :

وفي الأخير ان الدكتور محمد اقبال يتمنى للاسلام جيلاً جديداً . شبابه طاهر نقي وضربه موجع قوي ، اذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وان كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ؛ يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل . هــذا مع الاعداء وذاك مع الاولياء . اذا تكلم كان رقيقاً ، واذا جدّ في الطلب كان شديداً حفياً . وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً . آماله قليــلة ، ومقاصده جليلة . غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى . غيورٌ في العسر رؤوفٌ كريمٌ عند اليسر . يظمأ إن ابدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة . اذ كان بين الاصدقاء كان حريراً في النعومة ، وان كان بين الاعداء كان حديداً في الصلابة . كان طلا وندى ، تتفتح به الازهار وترف به الاشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الامواج وترتعد له البحار . اذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً ، كان شلالاً ؛ وإن مر في طريقه بحدائق ، كان ماءاً سلسالاً . يجمع بين جلال ايمان الصديق وقوة عليّ ، وفقر أبي ذرّ وصدق سلمان ،

يقينه بين أوهام العصر ، كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء . يُعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر . الشهادة في سبيل الله أحب اليه من الحكومات والغنائم يقتنص النجوم ، ويصطاد الاسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كانا . يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه . شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس . وشعر بانسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في حسن صوته » .

* * *

الإنسان الكامل في نظر محمد اقبال

بحث عن انسان :

قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته : « رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء . قلت له : يا سيدي ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن انسان في هذا العالم . لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والاقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ويروّح نفسي . قلت له : لقد غرّتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدتُ نفسي ، وأنضيتُ ركابي ، ونقّبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً . قال الشيخ : اليك عني ، أيها الرجل ! فأحب شيء الى نفسي ، أعزه وجوداً ، وأبعده منالاً » .

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد اقبال كتابه الخالد « أسرار خودي » . ولا أظن أن محمد اقبال اختار هذه المقطوعة ، وحلّى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور نفسيته ، وتعبر عن شعوره ؛ فقد كان بحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن « الانسان الكامل » ، فهل وجد محمد اقبال ضالته ، يا ترى ؟ وظفر بمطلوبه أم قطع من الرجاء ؟.

واذا كان الجواب : نعم لقد وجد محمد اقبال ضالته من الناس ، وظفر بوطره من الرجال ، فتأكدوا أنه فتح أعظم من فتح « كلمبس » ، واكتشاف أجل خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد ؛ لأنه اكتشاف الانسان المفقود ، وعثور على الانسانيه الضائعة ، ولا خير في العالم - قديمه وجديده - اذا فقِد الانسان وضاعت الانسانية ؛ وحاجة العالم الى انسان أشد اليوم من حاجته الى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الانسان الكامل :

ان محمد اقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الانسان المنشود ، وعرفه واتصل به ، ونراه قد هام به هياماً ، وتغنى في شعره بانسانيته وشخصيته ، فأين وجده محمد اقبال ، وكيف السبيل الى هذا الانسان الرفيع ؟

أخاف ان أفاجئكم بما لا تقدرونه ولا تنتظرونه اذا اخبرتكم أن الانسان الكامل الذي وجده محمد اقبال ، فوجد فيه ما كان ينشده ، من معاني الانسانية والقوة والحياة والجمال والكمال ، هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

ان هذا الجواب مفاجأة حقاً للذين يحملون للمسلم صورة قاتمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع ، الذي قدمه الشاعر ، للانسان الكامل ، ولكن محمد اقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم الضالة المنشودة والصورة الكاملة للانسانية .

المسلم المثالي :

ولكنه يعني ذلك المسلم المثالي ، الذي يمتاز ، بين أهل الشك والظن ، بإيمانه ويقينه ، وبين اهل الجبن والخوف ، بشجاعته وقوته

الروحية ، وبين عباد الرجال والاموال والاصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عبّاد الاوطان والالوان والشعوب بآفاقيته وانسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الاشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والانانية بزهـده وايثاره وكبر نفسه ؛ ويعيش برسالته ولرسالته . ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الاوضاع وتطورت الحياة لايزال الحقيقة الثابتة التي لاتتغير ولا تتحول ، وأما ماعداه فزبد يذهب جفـــاءاً ؛ ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، أما ماعداه فشجرة اجتثت من فوق الارض مالهـا من قرار . يقول في بيت : « انك أيها المسلم في العالم وحدك ، وما عداك سراب خادع ودرهم زائف » . ويقول في بيت آخر : « ان ايمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل ماعداه في هذا العالم المادي وهمٌ وطلسم ومجاز » .

* * *

المسلم له وجودان :

ان المسلم له وجودان ، الوجود الانساني ، والوجود الايماني ، أما الوجود الانساني : فهو الوجود الذي يشاركه فيه كل انسان ، يولد كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ، ويجوع ويظمأ ، ويشعر بالبرد والحر ، ويأكل ويشرب ، ويصح ويمرض ، ويموت ويحيا ، ويفقر ويغنى ، ويزرع ويتجر ، ويعول العيال ويربي الاطفال ، ويقتني الاموال ، ويحكم البلاد والرجال ؛ فهو في هذا الوجود خاضـع للسنن الطبيعية ، تجري عليه كما تجري على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ في أي إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنه يحمل اسماً خاصاً ، وينتمي الى جنس خاص ، ويلبس لباسا خاصاً وهو ذرة حقيرة في صحراء الوجود المترامية ، وموجة عادية تأتي وتذهب في بحر الكون الزاخر ، من غير ان يشعر بها أحـد ، فاذا اقتصر

المسلم على هذا الوجود البشري العام وعاش كإنسان لاأقل ولا أكثر ، كان كائناً ضعيفاً فانيا ليست له قيمة كبيرة في نظر صيرفي الوجود ؛ واذا مات في وقته مابكت عليه السماء والارض وما خسر فيه العالم شيئاً كبيرا .

أما الوجود الإيماني فهو انه يحمل رسالة خاصة ؛ رسالة الانبياء والمرسلين ، ويؤمن بمباديء خاصة ، ويعتقد اعتقاداً خاصا ، ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ، ودعامة من دعائم العالم ، وحاجة من حاجات البشرية ، يستحق أن يعيش ، ويستحق أن ينتصر ، ويستحق أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب ان يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية ، وحاجة الكون اليه ليست أقل من حاجتها الى الماء والهواء والنور والحرارة ، فاذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة ، كانت معاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والارواح والايمان والاخلاق ، التي تتكفل رسالات الانبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفل المسلم باعلانها ، والقيام بها والجهاد في سبيلها ؛ فلولا هو لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سراً مكتوماً ؛ اذن فمركزه في العالم ، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحول الانهار مجراها ، وتخرب عمائر وتعمر خرائب ، وتقوم حكومات ، وتتقلص حكومات ، وتأتي مدنيات وتذهب مدنيات ، وهو قائم لايزول ولايحول .

المسلم حي خالد :

يعتقد محمد اقبال أن المسلم حي خالد ؛ لأنه يحمل رسالة خالدة ، ويحتضن أمانة خالدة ، ويعيش لغاية خالدة ، يقول في بيت : « لايمكن أن ينقرض المسلم من العالم ؛ لأن وجوده رمز لرسالات

الأنبياء ، وأن أذانه إعلان للحقيقة التي جاء بها ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ » . ويقول في بيت آخر : « المسلم رسالة الله الاخيرة ، فلا يعتريها النسخ والتبديل » . ولايعني محمد اقبال أن كل فرد من أفراد الامة الاسلامية حي خالد ، يفلت من الموت ، ويتمرد على القانون الطبعي ؛ كيف ، وقد قال الله تعالى : (وما مُحمَّدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُسُل) وقال (أفإنْ متّ فهُم الخالِدون) ، ولكن محمد اقبال يرى ان المسلم موج من أمواج بحر الاسلام الخضم ؛ يأتي موج ويذهب موج ، وتترامى هذه الامواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده ، والبحر لايتغير ؛ فالبحر امتداد دائم ، وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود تتبدل أمواجه – وهي أفراد البشر – ولا يتبدل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوة أخرى ، فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون ؛ خُلق العالم له وخلق هو لله . لقد كان العلماء يتباحثون في صحة حديث « لولاك لما خلقت الافلاك » ، ولكن محمد اقبال لاتهمه صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، انه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الاسلام وطبيعة المسلم ، ورسالته السامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الانساني الواسعة العميقة ، والاطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائع الاشياء ، أن المسلم الذي هو جارحة لرسول الله ﷺ وخادمه ، هو مصداق معنى الحديث ؛ فضلا عن الوصول عليه الصلاة والتسليم ، فهو خليفه الله في أرضه . خلق لأجله العالم ، وعلّمه الأسماء ، وحكمه في الارض ، وأرثه خيراتها وخزائنها ، وألقى اليه بمقاليدها ؛ فيجب عليه أن يعتقد ، ويقتنع بأن العالم خلق له ، ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة . يقول في بيت : « ان العالم تراث

للمؤمن المجاهد ، لايشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمنا كاملا من لايعتقد أن العالم خلق له .

مقام المسلم مقام الامامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال ان المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، وليسائر الركب البشرى حيث اتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليها إرادته ؛ لانه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، ان مقامه مقام الامامة والقيادة ، ومقام الارشاد والتوجيه ، ومقام الآمر الناهي ، اذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع اوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضي الله في امره . يقول في بيت : « يقول من لاخلاق له : دُر مع الدهر حيث دار واذا لم يسالمك الزمان فسالمه ؛ وأنا أقول اذا لم يسالمك الزمان ، فصارعه وحاربه ، حتى يفيء إلى أمر الله » . ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجارات الاوضاع ؛ بل هو مكلف بمصادمة الاوضاع الفاسدة يرد الامر الى نصابه ، ويقيم سالفة الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وان كلفه ذلك عملية الهدم والنقض ، والعملية الجراحية ؛ فان كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والاصلاح . يقول في بيت : على المسلم ان يربي في نفسه الروح ، وينشىء في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته ، وينشىء عالماً جديداً . يقول متمثلا : « سألني ربي : هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ياربي . قال : فحطمه ولا تبالي » .

ويرى محمد إقبال ان الخضوع والاستكانة للاحوال القاسرة ، والاوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والاقزام . يقول في بيت : « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد » . ويقول : « اذا احسن المؤمن تربية شخصيته ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع في العالم الا ما يرضاه ويحبه » .

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال ان المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ ومطلع فجر السعادة في العالم ، وانه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ، ومؤذن الفجر في الليل البهيم ؛ وان أذانه لا يزال صيحة تدوّي في هدوء الليل وسكون الموت ، فيعيد الى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ، ويؤذن بطلوع الصبح الصادق ، وانصرام الليل الغاسق . وعلى هذا الاذان الصارخ والنداء العالي ، الذي ارتفع من جبل « أبو قبيس » قبل ثلاثة عشر قرنا ، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق ، الذي غط فيه خمسة قرون وأكثر ؛ وكان نفخة صور للانسانية الميتة والعالم المتحضر ، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الانسانية ، واحياء الضمير البشري . يقول في بيت : « ان المؤمن اذا نادى الآفاق باذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون » . ويقول في قصيدة : « لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح ، الذي يطلع على هذا العالم كل يوم ، ولست أعلم سره ؛ ولكني أعلم أن السحر الذي يهتز له هذا العالم المظلم ويولّي به ليل الانسانية الحالك ، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد اقبال بحق ان قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة

للعقول المعجزة للبشر ، مستمـدة من رسالته وإيـانه ، وباندماجه واضمحلاله في ارادة الله . هنالك يتحول جارحة للقدرة الالـٰهية ، وقوة قاهرة ، لاتصدها الجبال ، ولاتقف في سبيلها البحار . يقول في قصيدة، أنشأها في قرطبة : « ان يد المؤمن جارحة القدرة الالـٰهية ، فهي غلابة ، حلالة للعقد والمشاكل ، فتّاحة للابواب المقفلة ، لبقة صناع حاذقة . إن المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ؛ عبد متخلق بأخلاق مولاه، قلبه غني عن العالمين » . ويقول على لسان القائد الاسلامي الكبير طارق ابن زياد فاتح الاندلس ، وهو يدعو لاصحابه العرب بالنصر ويناجي ربه . يقول : « ان هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون ، الذين لايعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطمحون الى فتح العالم واخضاعه . اذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، واذا ركلوا برجلهم البحر انفلق . انكمشت الجبال وتقبضت بمهابتهم ؛ انهم عرفوك وأحبوك ، فزهدوا في العالم ، واستغنوا عن الدنيا . لايطلبون إلا الشهـادة في سبيلك ولا يهدفون بجهادهم الى الفتح والغنائم . لقد أفردت رعاة الابل بنعمتك ، وميّزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر ، وأذان السحر . لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجع للانسانية المظلومة ؛ وفي قلوب هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدة وجد العالم مآربه » . بل ان الشاعر يتقدم خطوة ، ويقول : « ماظنك بقوة ساعد المؤمن ! وهو بنظرته يقلب الاوضاع ، وبدعوته يرد القضاء » . والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله محمد اقبال ، فقد هزيء المسلمون المؤمنون في عصرهم الاول من الجبال والبحار ، وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات . وقصص سعد بن ابي وقاص وخالد بن الوليد والمثنى بن الحارثة الشيباني وعقبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهدة على صدق ماقاله محمد اقبال .

المسلم لاينحصر في الاوطان والشعوب :

ويرى محمد اقبال ان المسلم حقيقة عالمية لاتنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالانسانيه العامة ، في مساحة زمانية شاسعة ، كمساحة التاريخ الاسلامي ، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الاسلامي . يقول في قصيدة قرطبة : « ان المسلم لاتعرف أرضه الحدود ، ولايعرف أفقه الثغور . ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرة في بحره المتلاطم . عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ . هو في كل عصر ساقي اهل الذوق ، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق . شرابه رحيق دائما ، وسيفه ماض في كل معركة » . ويعتقد محمد اقبال ان العالم كله وطن للمسلم . يقول في بيت : « المسلم الرباني ليس بشرقي ولا غربي ، ليس وطني دهلي ولا اصفهان ولا سمرقند ؛ انما وطني العالم كله » . ويعتقد محمد اقبال ان المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له . يقول : « لمانزل طارق بالجزيرة الخضراء ، أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ، ولاموه على فعله ، وقالوا له : لقد قطعت بنا الحبال ، فكيف نرجع الى بلادنا . فوضع طارق يده على السيف ، وقال : انا لا أفكر في الرجوع ، وسنبقى هنا ، ونتخذه وطنا ؛ فان كل ما كان لله من أرض ، وبلاد وطن لنا . لافرق في ذلك بين العجم والعرب ، والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد اقبال ان المسلم يجمع بين المتناقضات من الاخلاق والصفات ؛ وماهي بمتناقضات ، ولكنها ظلال صفات الله ، ومظاهر اخلاق الله . فهو في تسامحه ، ورحابة صدره ، وكثرة صفحه قد تخلق

بخلق « الغفار » ؛ وفي شدته في الدين ، وغضبه للحق ، وثورته على الباطل قد تخلق بخلق « القهار » ؛ وهو في نزاهته ، وعفته ، وطهارة ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » ؛ وفي صلابته اذا تصلب ، وشدة شكيمته اذا ابى ، وشدة بطشه اذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ، ولا يكون المثل الكامل لدينه ، وصورة صادقة للاسلام ، حتى يجمع بين هذه الاخلاق المتنوعة ؛ فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة، والصلابة والمرونة ، والعفة والنزاهة ، ويكون في ذلك آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات الرسول . ثم يقول الشاعر : « ان المؤمن هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم ؛ به يُعلم رضا الله وسخطه ، وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره ، فهو حسن ، وما استقبحه فهو طائش ؛ وفي عزائمه تتجلى ارادات الله ، وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه . ثم ان حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة ، فالصبح يطلع كل يوم ، والليل يتبع النهار ، لاتخلف فيه ولا تناقض . وهو صاحب معان كثيرة ، ونغمة واحدة ، فهو كسورة الرحمن في القرآن ، تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية « فبأيّ آلاءِ ربّكما تُكذّبانِ ». وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يُتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ، ويضرب على وتر واحد ، ويكرر رسالة الانبياء ، ويقول لكل جيل : « ياقَوم اعبدُوا اللهَ مالكم من إلـهٍ غيرُه » فهو كالصبح جديد وقديم ، فهو في جدته ليس أحدٌ منه ، وهو في قدمه ليس شيء اقدم منه ؛ هو قديم لكنه يتجدد به العالم ، وتتجدد به الكائنات ، وتنتعش به القوى ، وتستيقظ به الاجسام والقلوب ، والعقول ؛ ثم جديد بنفسه، تتجدد قواه ويتجدد نشاطه ، وتتفتح قريحته مع العصور ؛ علمه سيار، وعقله مبتكر ، ونفسه طموح ، وهمته وثابة ، وهو كالمطر كل قطرة

غير الاولى ، ولكنها قطرات مطر ، وكلها تحيي الارض ، وكلها تنبت النبات ، وكلها تسقي المزارع والاشجار ، وكلها تفتح الازهار ، وكلها تكون الانهار ، وهو معنى قول النبي ﷺ « أمتي كالمطر لايدرى أأوله خير أم آخره » .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً :

ويقول محمد اقبال : « ان المسلم كالشمس اذا غربت في جهة ، طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة » . وقد صدق ، فإن الاسلام لم ينكب في ناحية من نواحي العالم ، ولم يخسر في جانبٍ دولة إلا وقامت له دولة في جانب آخر ؛ ولم تسقط له راية إلا وخفقت له راية أخرى ؛ ولم يغب له نجم ، إلا وطلع له نجم آخر . لقد كانت خسارة الاندلس الاسلامية كارثة كبيرة ، ومصاباً عظيماً ، ولكن عوض الاسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم ، هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس القارة الاوربية ، وجثمت على صدر الدول ، والامم التي انتزعت الاندلس الاسلامية ، واجلت المسلمين من وطنهم العربي الاسلامي . وكان سقوط غرناطة ، وأوج الدولة العثمانية ، في عهد سليمان القانوني ، حادثين في عصر واحد . ونكب العالم الاسلامي ، ونكبت بغداد بغارة التتار ، وانطمست معالم الحضارة الاسلامية ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتسع وتزدهر . وأصيب العالم الاسلامي بهزات عنيفة ، وقواصم مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الاوربيين ، فقد اقتسمت الدول الاوربية تراث الدولة العثمانية كمالٍ سائب ، واغتصبت ممتلكاتها في افريقيا ، وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن تبع هذا كله اليقظة الاسلامية الهائلة ، والوعي السياسي القويم ، والطموح الى الاستقلال والحرية ، والحركات الاسلامية المختلفة التي كان يجيش بها

العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه . ونكب المسلمون في العهد الاخير نكبات عظيمة في الشرق الاقصى والاوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الاسلامية ، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان في الشرق ، احداهما دولة پاكستان ، والاخرى أندونوسيا . وهكذا لم يزل التاريخ الاسلامي متأرجحاً بين الأسفل والاعلى ؛ فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر ، كالارجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه في أفق إلا وبزغت في أفق آخر . وذلك لأن الاسلام رسالة الله الاخيرة التي لا رسالة بعدها ، والمسلمون هم الامة الاخيرة ، التي لا أمة بعدهم ؛ فاذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ، واذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .



برلمان ابليس

في ديوان محمد إقبال الاخير « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) قصيدة بديعة وصف فيها وصوّر جلسة برلمانية ؛ حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الابليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدد مهمتهم في العالم وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم . وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « ابليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبعد نظره الذي لايشاركه فيه أحد من تلاميذه . وأدلى برأيه الحصيف المؤسّس على الدراسة الواسعة العميقة . وهو يتلخص في : أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفؤ لنظامه ، وهي الشرارة التي تتحول ناراً بسرعة ؛ فالمصلحة والرأي أن يركز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، او إلهائه وتنويمه . وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، مايفيد الاطلاع عليه ، واليكم محضر الجلسة :

« ان الشياطين وزملاء ابليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الابليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار

قد أحدقت بهم وهددت نظامهم ، وجللوا خطبها وتناذروا شرهـا ؛ فذكر أحدهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لايهولنّك أمرها ، فانها ليست الا غطاءاً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذ رأينا الانسان بـدأ ينتبه ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لاتحمد عاقبتها ، فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الامير والملك . ان الملوكية لاتنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكيـة ، وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الانسان عيالا على غيره ، مستشرفاً الى متاع غيره ، سواء في ذلك الشعب والفرد ؛ أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهه مشرق وضاح ، وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان .

فقال الآخر : لابأس اذا بقيت روح الملوكية ، ولكن مـاذا يقول النائب المحتوم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ ، أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مباني الامارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : ياصاحب الفخامـة ان سحَرة أوربا ، وان كانوا مريديك المخلصين ، ولكن لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامري اليهـودي الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسر البغاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرها ، وها هي الارض ترجف بهـول فتنة الغد . ياسيدي ! ان العالم الذي كنت تحكمه سينقض عليك ، وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : اني أملك زمام العالم ، وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً ، اذا حرشتُ بين الامم تهارشت تهارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ؛ واذا همستُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم ، وجُن جنونهم .

أما ماذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أن الخرق الذي أحدثته الفطرة بين الأنسان والانسان لايرفؤه المنطق المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لايخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً ، فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ؛ لا يخفى على الخبير المتفرس أن الاسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أنّ هذه الامة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فُتنت بالمال ، وشغفت بجمعه وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الاسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ؛ ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها ، وتوقظ هذه الامة ، وتوجهها الى شريعة محمد ﷺ ؛ إني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ ؛ حامي الذمار ، حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ؛ يُلغي كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على

صعلوك ؛ يزكي المال من كل دنس ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم ، أمناء لله ، وكلاء على الاموال ؛ وأي ثورة أعظم ، وأي انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل ، يوم صرخ : أن الأرض لله ، لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم ، أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الايمان بدينه ، فخير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات . اضربوا على أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ؛ واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره . اشغلوه يا اخواني ! عن الجد والعمل ، حتى يخسر الرهان في العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه واستخفافاً لخطره . يا ويلتنا ! ويا شقوتنا ! لو انتبهت هذه الأمة ، التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسّه »[1].

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلا نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم ؛ وكانت مؤامرة مبيتة ضد الاسلام ، وخطة منظمة ضد أجياله القادمة ؛ فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرة الإيمانية ، التي لا تزال كامنة في الرماد ، وتجريد المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية والعاطفة الاسلامية ، التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحمل الشدائد والمكاره ، في

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٣٠ - ٢٣٣

سبيل الله ، والثورة على البـــاطل ؛ وقد أوصى بذلك ابليس أشياعه وجنده . يقول محمد اقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس الى تلاميذه السياسيين) : « إن المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد ﷺ من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً من الفقر ، شديد الخوف من الموت ؛ وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنون بذلك من إجلاء الاسلام من الحجاز واليمن ؛ ان في الأفغان غـيرة دينية ، وعلاجها أن يغفو العالِم الديني من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطرق للوصول الى هذا الهدف هو التعليم ، الذي يجرد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الاسلامية والعقلية الاسلامية ، وينشيء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية ، وطبيعة التهام الحياة ، وانتهاب المسرات ، وتقديس المادة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشك في الدين ؛ لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الإله آبادي : أن فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني اسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم الى طرق سافرة ، ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللعنات ؛ فكان يقتل أبنـــاءهم ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني اسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ؛ ولو أنه رُزق شيئاً من الابتكار ، وبعد النظر ، ودقة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني اسرائيل ، ينشيء الجيل الاسرائيلي الجديد كما يشاء ، ويسبك العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع إمكاناً لنشأة شاب مثقف ، يشعر الشعور الديني ، ويحمل العاطفـــة الدينية ، والغيرة القومية ويهتم بشيء آخر غـير الوظائف والمناصب والمرتبات والدرجات ؛ لو أن فرعون وفق لهـــذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحدوثة ، ووصل الى غايته في سهولة ويسر ،

وهدوء وسلام ، وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حامي العلم » و « مربي الجيل » وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الديني في بلاد الاسلام ، وخمدت جذوة الايمان ، وفقدت البطولة الاسلامية ، وروح الجهاد ، وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر ، وقد ساح في كثير من البلاد الاسلامية والعربية : « لقد تجولت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ؛ والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت لاحمرو العنقاء المُغرِب ». ويقول في قصيدة قالها في فلسطين : « لاأرى في بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السمو الفكري الذي كان يمتاز به العجم ، لاتزال دجلة والفرات متعطشين الى بطل من ابطال الاسلام ، ولكني لاأرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعر محمد اقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشد الالم ، ويبكي دما ؛ وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع يقول في أبيات : ياوارث التوحيد الاسلامي لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الايام ، اذا نظرت الى أحد ، ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعا ؛ وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لاتحمل روحاً ولا تجذب نفوساً » . ويقول في موضع آخر :« ان السجدة التي كانت تهتز لها روح الارض لقد طال عهد المحراب بها ، واشتاق اليها المسجد ، كما تشتاق الارض الجديبة الخاشعة الى المطر ؛ لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الاذان الذي ارتعشت له الجبال بالامس » . ويقول في بيت : « لقد فقد المسلم

لوعة القلب ، وانطفأت نار الحياة فيه ، فأصبح ركاما من تراب » . ويقول :
« لم أر في محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة ، قد بحثت عنها موجة موجة ،
وتفقدتها صدفة صدفة » . ويرى محمد اقبال أن مصدر هذا التدهور هو
القلب الذي خوى من الايمان وشعلة الحياة . يقول : « لقد فقد المسلمون
سوْرة الحب الصادق ، ونزف منهم دم الحياة ، فأصبحوا هيكلا من عظام ،
لا روح فيه ولا دم ؛ الصفوف زائغة ، والقلوب مضطربة ، والسجدة
لا لذة فيها ؛ ذلك لأن القلب خال من الحنان » .

اليقظة الاسلامية :

هذا ولكن محمد اقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التي أصيب بها
العالم الاسلامي أقضت مضجع المسلمين ، وأيقظتهم ، ودب فيهم دبيب
الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الاسلام » : « اذا رأيت
النجوم شاحبة منكدرة تخفق ، واعلم أن الفجر قريب ؛ ها هي
الشمس قد ذر قرنها من الأفق ، وولى الليل على أدباره ، إن عاصفة
الغرب قد أعادت المسلم الى الاسلام ، فإنما تتكون اللآلىء في البحر
المتلاطم الهائج ، لقد دب دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدم الفائر
في عروقه الميتة ؛ وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي . إن المسلم
سيُمنح من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي » .
ويقول في بيت : « ان اقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فإنها اذا
سقيت ، أتت بحاصل كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد اقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ، ونثرت
كنانتها ، وقد شاخت وهرمت ، وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ؛
وأن العالم القديم ، الذي حوله مقامرو الغرب الى حانة الفساد

والمقامرة ، منهار قريبا ، والانسانية تتمخض بعالم جـديد ، ويعتقد محمد اقبال أن هذا العـالم الجديد لا يُحسن تصميمه ، إلا من بنى للانسانية البيت الحرام بالأمس ، وورث ابراهيم ومحمداً ﷺ في قيـادة العالم وإرشاده ، فيُهيب محمد اقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده بالله أن يقوم ، ويمسح النوم من عينيه ، فقد ظهر الفساد في الـبر والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد اصلاحها ، وخربوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ؛ وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذِنَ أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ ولكن الاوربيين قد حوّلوها الى خمارة ، وبيت فسق ودعـارة ، ومكان نهب وغـارة ؛ وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الاسلام أن يقوم ، ويصلح ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيت الى قواعد ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العـالم من جديد .

* * *

إلى الأمة العربية (١)

يذكّر اقبال الامة العربية عهدَها القديم قبل البعثة ، حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همّ لها في الحياة إلا الاكل والشرب ، وكان مثلهم كمثل السيف المغلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظبة فهو لا ينفع ولا يُنتفع به ؛ فيقول الشاعر :

« ايها العرب ! قدمنّ الله عليكم ، اذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحد منه . وكنتم ، فيما قبل ، ترعون الابل في الصحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ؛ ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلا عن الابل ، فاصبحتم من مالكي أعنتها ؛ فلو أقسمتم على الله لأبركم . وهنالك دوّت تكبيراتكم وصلواتكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم ، بين الخافقين ؛ فارتج بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك الغزوات »

وبعد ما يمدحهم الشاعر ، ويذكر حماستهم الإسلامية ، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ، ويُبدي فرحه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن ، والتألم ؛ يرى من خمود العرب ، بعد النشاط ، والاحجام

---

(١) كتب هذا المقال الاستاذ سعيد الندوي بتوجيه من المؤلف ، وقد تناولها بالحذف والزيادة ، ورأي ان يضمها الى هذه المجموعة ، ليطلع القراء على رسالة اقبال الى العرب خاصة .

بعد الاقدام ، والفرقة بعد الوحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة . ويُقبل اليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون الى الامم الاخرى ، كيف تقدمت وسبقت ؟ أما أنتم ، فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمة واحدة ، أمة الاسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرّقتم جمعكم ، ومزقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسكم » .

« اعلموا ايها السادة ! أن من ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ومُحي من الوجود ؛ ومن فرّ من معسكره ، وانحاز الى صفوف الاعداء ، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان والشقاء ، والطرد والجلاء ، ألا إنه لم يجن عدو مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يسيء أحد الى أحد إساءتكم الى أمتكم ؛ انكم آذيتم روح رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألمة متوجعة ، شاكية مستغيثة » .

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، قد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم ؛ فهو يتألم ، إذ يرى في الامة العربية من يُحسن الظن بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفض المشاكل ؛ فيرسل صيحته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلًا أيها الغافلون ! إياكم والركون الى الافرنج ، والاعتماد عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا الى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم . ألا إنه لاحيلة لكم ولا وزر إلا ان تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إن حكمة الغرب قد أسَرت الأمم ، وتركتها سلبية

حزينة ، لا تملك شيئاً ، انها مزقت وحدة العرب ، واقتسمت تراثهم ، ان العرب لمّا وقعوا في حبائلهم ، تنكر لهم كل شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يجدوا من يرثي لهم ويرفق بهم ، وضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم » .

وبعد ما يفيض الشاعر في بيان شرور الافرنج ومكائدهم ، ويحذر العرب من الانسياق اليهم والوقوع في شركهم ، يُقبل الى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« ان الله قد رزقكم البصيرة النافذة ولا تزال فيكم الشرارة كامنة ، فقوموا أيها العرب ! وردّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى ، ان منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم والاخلاص واليقين ؛ وما دامت ضمائركم أمينة للسر الالهي ، فياعُمّار البادية ! أنتم الحراس للدين ، وأمين الله في العالمين .

ان غريزتكم العربية الاسلامية ميزان للخير والشر ، وأنتم ورثة الارض ، اذا تألق نجمكم في آفاق السماء أفلَت نجوم الآخرين ، وطوي بساطهم . لن تسعكم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق . كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السيل ، حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح » .

« ليت شعري ! من خلـَفـُكم في الحياة ؟! إن العصر الحاضر وليد نشاطكم وكفاحكم ، وصنيع جهادكم ودعوتكم ؛ وما زلتم سادته وولاته حتى أفلتَ زمامه منكم ، فتبناه الغرب وامتلكه ؛ ومن ذلك اليوم فقد هذا العصر ، وهذا المجتمع الانساني ، شرفه وكرامته ، واصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدين » .

فيارجل البادية ! وياسيد الصحراء ! عُد الى قوتك وعزتك ،

وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عنان التاريخ ، وقُد قافلة البشرية الى الغاية المثلى » .

وهنا نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها الى روح رسول الله ﷺ ضياع الأمة الاسلامية ، وانطفاء شعلة الحياة والايمان في نفوس العرب ، ويشكو وحدته وغربته في هذا المجتمع الاسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاة من قام بين يديه ، وأذن له في الكلام . يقول :

« لقد تشتت شمل أمتك يامحمد ! يارسول الله ، فإلى أين يلجأ المسلم الحزين وإلى من يأوي ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الامة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذي عُرفت به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأين أجد من يساعدني على آلامي وأحزاني ؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوي السفر البعيد ، في هذه الجبال والمهامه ، وقد ضل سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب . بالله ! قل لي ماذا يصنع حامل دعوتك ، المؤمن برسالتك ، وأين يجد زملاءه ورفقته ؟ »

ويؤلم الشاعر ، أن يرى العرب لايزالون ينظرون الى الأوربيين الانجليز والامريكيين ، كأصدقاء مخلصين وأعوان منجدين ؛ يحلون لهم مشكلة اللاجئين ، ويردون اليهم أرض فلسطين ، مع أنهم لايزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسي والاقتصادي والصحافي ، يقول :

« أنا أعلم جيداً ياإخواني العرب ! أن النار التي شغلت الزمان وبهرت التاريخ ، لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم . صدقوا أيها السادة ! إنه لادواء لكم في جنيف ولا في لندن ؛ لأنكم تعلمون أن اليهود لايزالون يتحكمون في سياسة أوربا ، ولا يزالون يملكون زمامها . ان الامم لاتذوق طعم الحرية والاستقلال حتى تربّي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرف لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطف واعتذار :

« معذرة ياعظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندي [1] أن يخاطبكم ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا : أيها الكرام ! هندي ونصيحة للعرب ؟ انكم كنتم يامعشر العرب أسبق الامم الى معرفة حقيقة هذا الدين ؛ وانه لايتم الاتصال بمحمد ﷺ إلا بالانقطاع عن « ابي لهب » ؛ وانه لايصح الايمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت ؛ كذلك لاتتم الفكرة الاسلامية الا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية . ان العالم العربي ، أيها السادة ! لايتكون ولايظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وانما يقوم على أساس هذا الدين الاسلامي وعلى الصلة بمحمد ﷺ » .

* * *

---

(١) لايغرب عن البال ان محمد اقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، قبل ان تكون هناك جنسية باكستانية .

في جامع قرطبة

وقف محمد اقبال - في عام ١٩٣٢ م ، الذي زار فيه اسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الايمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية ، التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ؛ خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ، الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفن الاسلامي العربي الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى ان هذا المسجد العظيم صورة للمسلم في هذه الارض الحنون ، تجلت فيه أخلاق المسلم وصفاته ؛ علو في الهمة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراءة في النية ، وثبات على الحق ، واعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والانفة والتواضع .

وتذكر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ؛ تذكر - والشيء بالشيء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوّي في الجو ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ؛ ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الامة ، فليس له نظير في الأصوات

والهتافات والاعلانات والرسالات ؛ ذلك الاذان الذي كان يخشع له الكون ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ؛ ذلك الاذان الذي تنفّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ، وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا ؛ وما بين العالم اليوم ، وبين الصبح الصادق ، إلا هذا الأذان الصادق الذي ينادي به المؤمن الصادق . وتذكّر بهذا الاذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الاذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأن الامة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود - لا تموت ولا تفنى .

حرّك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذانَ منذ قرون ، حرك كل ذلك في إقبال الايمان والحنان ، والأحزان والألحان ؛ وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » ، وقد كتبها في اسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد اقبال أن هذا العالم خاضع للفناء ، وأن الآثار التي تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التي تنتجها العبقرية الانسانية بين حين وآخر كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات ، إلا ذلك الاثر ، الذي أكمله عبد مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوي الخالص[1] - والحب هو أصل الحياة الذي حرم

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه اقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الايمان والحنان ، لاصلة لها بالغرام والعاطفة الجنسية .

الله عليه الموت ـ إن الدهر سريع ورفيق في سيره ، وهو تيار عنيف لا يقف في طريقه شيء ، والحب هو القوة الوحيدة التي تقفه لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ؛ ان الحب غـير خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصور ليس لها اسم في لغتنا ؛ الحب هو الذي تجلّى في الرسالات السماوية وفي الاخـلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور والسرور ونشوة الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ؛ الحب قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الاحزاب ، فله أطوار وأدوار ؛ وهو رحالة لا يزال في سـير وانتقال ، وحلّ وترحال ، وله منازل ومقامات يمر بها ويخلفها وراءه ؛ هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعر العظيم الى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كُتب لها الخلود ، فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، ان البدائع الفنية اذا لم توافقهـا العاطفة ولم يسقِها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لون أو قرميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، ان المعجزات الفنيـة لا تعيش إلا بالحب ، ولا تقوم إلا الى على العاطفة والاخلاص ؛ الحب هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفاق حنون للبشر ، فاذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت ، واذا تجردت منه القلوب الانسانية جمدت وماتت » .

ويقول ، في عقيدة مؤمن ، ودلال شاعر محب : « إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الايمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة

الاحزان ، إن الانسان في تكوينه وخلقه قبضة من طين لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامة وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه وحملَ أمانة الله ، ان الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لها تلك اللوعة واللذة التي امتاز بها سجود الانسان؟! »

وهنا يتذكر محمد اقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكر أنه هنـــدي النجار ، وأنه من احدى بيوتات « البراهمة » ، [1] ويتذكر أنه أمام أثر إسلامي عربي صميـم قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! الى هذا الهندي – الذي نشأ بعيداً عن مركز الاسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعُباد الأصنام – كيف غمر قلبه الحب والحنـان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكـه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والايمان ! »

ويذكّـره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعــه وشاده ، وبالامة الاسلامية العظيمة ، التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ؛ فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والاغصان . ويلتفت الى المسجد ، فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلا في بادية العرب . ويرى شرفاته مشرقة بنور ربهــا ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلا للملائكة ومهبطاً للرحمة الالٰهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « ان المسلم حي خالد ، لايزول ولا ينقرض لانه يبلّـغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها ابراهيم وموسى ، وجاء بها النبيون ؛ وقد قضى

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مائتي سنة .

الله بخلودها وبقائها ، فكيف يزول وكيف تنقرض الامة ، التي حملت هذه الامانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة !»

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الامة التي يمثّلها هذا المسجد، الذي لايعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « ان المسلم لاتعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف افقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكتـه الشرق والغرب ؛ فليست دجلة في العراق ، ودانوب في اوربا ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الاعظم . إن له عصوراً في التاريخ لايقضي منها العجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لاتزال موضع الدهشة والاستغراب . هو الذي أمر العصر العتيق – العصر الجاهلي - بالرحيل وافتتح العصر الجديد . انه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الايمان والحنان ، لسانه لبن وعسل ، وسيفه علقم وحنظل ؛ يعيش في ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد ؛ كلما اشتد به الخطب ، ، وعضته الحرب التجأ الى إيمانه واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد ، يتحدث إليه ويناجيه ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سر المؤمن ، ومثّلته في العالم ، وصوّرت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ؛ صوّرتَ للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السامي ، ومسراته واشواقه ، وتواضعه ودلاله » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموه وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : ان يد المؤمن هي جارحة القدرة الالهية ، فهي غلابة ، فتاحة ، قاهرة ، ناصرة . أصله من تراب ، وفطرته من نور ؛ عبد تخلّق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين . آماله ومطامعه قليلة ، وأهدافه

ومطاحه رفيعة جليلة ؛ ألقي عليه الحب وكسي المهابة والجمال . رقيق رفيق في الحديث ، قوي نشيط في الكفاح ، نزيه بريء في السلم والحرب . إن إيمانه هو نقطة الدائرة ، التي يدور حولها العالم ، وكل ماعداه وهم وطلسم ومجاز . انه الغاية التي يصل اليها العقل ، ولب لباب الايمان والحب ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها » .

ويقبل مرة ثانية على المسجد ، فيخاطبه في اجلال وإكبار ، ويقول : « يامثابة هواة الفن ! ويا مقصد رواد الجمال ! ويامجد الدين الاسلامي ! لقد سمت بك أرض الاندلس ، وتقدست في أعين المسلمين. انك فريد في الفن والجمال ، لايوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن . أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب « الخلق العظيم » وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم ، على أن حكومة أهل القلوب خدمة وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً . هؤلاء العرب المسلمون ، الذين كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحاب عقول حصيفة ، وبصيرة نافذة ، يوم كانت اوربا تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ؛ والذين لاتزال في الشعب الاسباني ، بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمال شرقي. فتكثر فيهم عيون المهى ، ولاتزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب اسبانيا — الاندلس الاسلامي المغصوب — ، فيتغنى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أن أجواءها لم تسمع الأذان من قرون . ثم يذكر مامرّ على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوق الى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الاسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الاصلاح الديني ، التي عفّت الآثار القديمة والتقاليد

العتيقة في اوربا ، فجحدت أوربا المسيحية عصمة القسوس والبابوات ، وتحرر الفكر الاوربي ، وتحركت سفينته في يسر وسهولة . وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة ، التي اضطربت لها اوربا اضطراباً . وأصبح الشعب الطلياني - الرومي - شاباً فتيا بلذة التجديد[1] . هكذا الروح الاسلامية مضطربة قلقة ، تطلب انتفاضة جديدة ؛ ولكن متى ذلك ؟ انه سر من أسرار الله ، لايفصح به اللسان . والعالم يتمخض بحوادث جسام ، فلا يستطيع أحد ان يتكهن بالمستقبل » . ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ، ويقول : ان على شاطئك ، أيها النهر العزيز ! رجلا يرى حلماً لذيذا ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لايزال في طيات الغيب ؛ يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنها لاتزال محجوبة عن أعين الناس . لو كشفتُ الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحثُ مافي صدري من أفكار واسرار ، لشقّ ذلك على أوربا ، وفقدت رشدها وجُن جنونها » .

ثم يعود مرة ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الامم والشعوب ، والحاجة الى الثورة على الاوضاع الفاسدة ، ويقول : « كل حياة لاتجديد فيها ولا ثورة أشبه بالموت ، ان الصراع هو حياة روح الامم . ان أمة تحاسب عملها في كل زمان ، سيف بتار في يد القدر ، لايقاومه شيء ولا يقف في وجهه شيء[2] » .

ويختم محمد اقبال قصيدته البديعة ، بكلمة حكيمة مأثورة ، مبنية على تجرب واسعة ، ودراسات عميقة ، واستعراض واسع للأدب ، والشعر ، والفن ، والافكار ، يقول :

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة ، والطموح ، والاعتداد بالنفس ، والقومية الرومية .

(٢) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية .

« ان كل مأثرة وكل إنتاج ، لم تذُب فيه حشاشة النفس ناقص ، وجـديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكل رنّة أو نشيد لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألم له النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الافكار » .

وهذا هو سر الخلود والبقاء للآداب والافكار والانتاج ، وهذا سر تفاهة الادب الجديد ، الذي يولد سريعاً ويموت سريعاً ، وهـذا هو سر التأثير والخلود في شعر اقبال وانتاجه .

فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا ؟

* * *

في أرض فلسطين

تحركت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الاسلامي المنعقد في القدس عام (١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م) ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ؛ وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس . ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ؛ والتقى جمال المكان بجمال الزمان . فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد اقبال ، الذي جاء من اوربا يمثل الهند الاسلامية في المؤتمر الاسلامي ، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب ، فكل نظرة تضيع في جمال الطبيعة ترجع الى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الاسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته . فقد غطت الجوّ سحائب ذات الالوان ، واكتسى جبال فلسطين بطيلسان جميل ، زاهي اللون ، وهب النسيم عليلا بليلا ، وهفت اوراق النخيل مصقولة مغسولة بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال في نعومتها وصفاءها حريرا . ورأى الشاعر العظيم آثار نيران انطفأت قريباً ، وأثافي [1] منثورة هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ،

---

(١) الأثافي الحجارة التي توضع عليها القدور .

ضربت في هذا الصحراء بالأمس القريب ، تخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت . وطاب المكان والزمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على ان يلقي فيه عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته [١] .

حرّك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطفَ الشاعر ، وهاجت قريحته ، وتحرك الحب الدفين ؛ ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن وتظهر الكوامن ، فيتذكر الانسان أحب شيء إليه فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنى به . وقد حل « الاسلام » وحلت الأمة الاسلامية في قلبه محل الحبيب الاثير ، وسيطر حبه على مشاعره ؛ فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر « حبيبه » وتغنى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً ، وبستاناً من النَور خاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه مُنى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى ان ركب الحياة بطيء لايسايره في افكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى ان العالم عتيق شائب ، وفكره « الاسلامي » جديد فتيّ ؛ ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنام وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم « القومية » و « الوطنية » ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات . وقد تسربت هذه الوثنية الى العالم الاسلامي والعربي ؛ أفليس العالم في حاجة الى ثورة ابراهيمية جديدة ، الى كاسر أصنام ، يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟ .

وسرّح طرفه في العالم الاسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل

(١) الوصف للمكان والمنظر لاقبال ، نقلناه الى العربية في لفظنا .

والعاطفة . ورأى العالم العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ؛ ورأى ان النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ، ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته . ورجا العالم الاسلامي ان يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ؛ وتطلّع العالم الى الحجاز - معقل الاسلام وعرين الأسود - فما كان منه إسعاف وانجاد، ولم تتجدد معركة كربلاء ، على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الانسانية الى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الاسلامي الى بطله الجديد .

وهنا شعر محمد اقبال أن السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الاسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول : « لا بد أن يعيش العقل والعلم والقلب في حضانة الحب ، واشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تُسند الدينَ وتغذيه عاطفة قوية ، وحبٌ منبعه القلب المؤمن الحنون ؛ فاذا تجرد الدين عن العاطفة ، والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولاروح ، ولاحماسة فيها ولا قوة ؛ هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه الى الوجود . وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون وحار في الوصول اليها الباحثون».

ثم يستعرض العالم الاسلامي - وقد عرف شرقه وغربه ، وعربيه

وعجميه - فيُحزنه قِصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة وقلة البضاعة[1] في رجال الدين . ويرى أن المراكز العلمية والدينية - بمعناها الواسع - محرومة من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز ، التي تتزعم العالم الاسلامي ، وتقود الأجيال البشرية . ويقول : « إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الابطال الذين رحلوا ، وغابوا في غياهب الماضي . ان شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ويربّي الآمال في الصدور ؛ ولا عجب اذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي . ودعائي أن لا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يُقبل في شعره الى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرة حقيرة أو قطرة صغيرة ، في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرف نوره على ذرة ، فكانت شمساً بازغة ؛ وكيف تجلى بالجلال ، فكان في الارض ملوك كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ؛ وكيف تجلى بالجمال ، فكان زهاد وعباد . زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ، ويقول : « ان الحنين اليك ، هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياة روحانية ؛ فإذا تجردتْ صلاتي من هذا الحنين ، لم أر أنها تقرّبني اليك . لقد وجد عندك العقل والعاطفة ، ما يعوزهما وما يحتاجان اليه ، فأصبح العقل - بعد

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما هم بصدده .

توفيقك - يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ؛ وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب » . ويناجي ربه ويقول : « ان الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الارض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيدا في دراساته العلمية ، الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب . ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والايمان ؛ ذلك الصراع الذي لم يزل ، ولا يزال قائماً حامياً . ويذكر معركة قامت ، في فجر التاريخ الاسلامي ، بين المادة والايمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الايمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر[1] .

فلينظر العالم العربي الى أي معسكر ينضم ؟ الى معسكر المادة والمعدة ، أم الى معسكر الإيمان والإخلاص ؟ والى أي راية ينضوي ؟ الى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم الى الراية المحمدية التي التف حولها أبو بكر وعمر .

---

(١) من « بال جبريل » ديوان شعر لأقبال . قصيدة « ذوق وشوق » .

في غزنين

سافر محمد اقبال ، على دعوة من ملك الافغان الشهيد نادر شاه ، عام ١٩٣٣ م الى افغانستان ، ومرّ في طريقه على غزنين ، عاصمة اسكندر الاسلام السلطان محمود الغزنوي ؛ وزار قبر الشاعر الحكيم السنائي الغزنوي ، الذي يعتبره محمد اقبال استاذاً له في الشعر والحكمة ، وسلفاً بعد مولانا جلال الدين الرومي . وطاب له الوقت ، وفاضت قريحته بشعر إسلامي حكيم ؛ بثّ فيه أشواقه وآماله وآلامه ، ونظر فيه الى العالم المعاصر بعين حكيم شاعر ، ومؤمن ثائر . وسجّله تذكاراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية .

يشكو الشاعر العظيم ، في مستهل هذه القصيدة ، ضِيق هذا الكون ، ويذكر أنه مع سعته التي يوصف بها لا يسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أن هذه الدنيا - برحابها الواسعة ، وصحاريها المترامية ، ومتعتها الفاتنة - تسع فرداً واحداً رزقه الله علو الهمة ، وكبر النفس ، وحرارة الحب ، ويتهمه بسوء التقدير ، وضيق التفكير . ويقول ، في صراحة وثقة : « إنّ من عرف نفسه وقيمته تحرر من هذا العالم المادي ، وتمرد عليه ؛ وذلك سر التوحيد الذي لا يزال الناس في غفلة عنه . وإنّ من تفتحت بصيرته ، تجلّى له الجمال الالهي ، فرآه في هذا الكون » .

ويذكر هنا محمد اقبال انه لا صراع بين العلم والمعرفة والحب ،

وانما هو من تصوير المنتسبين الى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ؛ فقد رأوا في من ملكه الحب ، المنافسَ للعلم والدين ، وقسوا أو اسرعوا في الحكم عليه ، ويقول : « إن الاستغناء عن المادة وأصحابها ، والحكومة ورجالها ، هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية ، فلا سبيل اليهم ، ولا سلطان عليهم للملوك والاغنياء . ثم يقول ، في دلال واعتداد : « لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلدني في لوعتي وسكري ، فتلك نعمة خصّ الله بها بني آدم ، وحسبك الذكر والتسبيح والطواف ، الذي جبل الله عليه الملائكة الكرام » .

وهنا يقبل الشاعر الى العالم ، الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ، ويقول : « لقد عرفتها وعشت فيها زماناً ، ولا ينبئك مثل خبير » . ثم يقص ما يعانيان من أزمة ، وما يقاسيان من علة ؛ فيصورهما تصويراً صادقاً دقيقاً ، لا يستطيعه إلا من اختبر الشرق والغرب ، ويقول : « أما الشرق فقد توفر فيه الاستعداد ، ولكن يُعوزه الموجّه والقيادة الرشيدة ؛ واما الغرب فقد أتخم بالقوة والوسائل ، ولكن حُرم لذة الايمان ، وبرد اليقين » . ويتذكر العالم الاسلامي ، فيقول : « لقد انقرض منه أولئك العماليق الذين كانوا يتحدون الملوك ، والاباطرة بأنفتهم ، وكان في فقرهم وزهادتهم حتف للاستبداد » .

ويتذكر العالم العربي فتُحزنه الاوضاع الفاسدة هناك[1] ؛ يحزنه عبث الملوك العرب ، وأمرائهم ، وزعمائهم ببلادهم العزيزة ، والمقدسات الاسلامية ، ووقوعهم في شباك الاجانب مرة بعد مرة ، وانهماكهم في لذاتهم وشهواتهم ، فتصدر منه كلمة قاسية لاذعة ، لم يُصدرها إلا الايمان العميق ، والحمية الاسلامية ، فيقول : « ان هؤلاء الشيوخ والأمراء

(١) لا ينسى القارىء أن هذه القصيدة قيلت في عام ١٩٣٣م .

لا يُستغرب منهم أن يبيعوا جُبة أبي ذر ، وكساء اويس القرني ، ورداء فاطمة الزهراء[1] ، وأعز المقدسات ، في كأس يحتسونها ، ولذة ينتهبونها » . ويقول : « إن نفوذ الاجانب في جزيرة العرب والاقطار العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثير من أجزائها ، حقيقة مؤلمة ، يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة الساعة ورجفة القيامة ؛ وتمثّل بشطر بيت للحكيم السنائي - الذي وقف اقبال على قبره ونظم هذه القصيدة - قاله عندما ملك التتار العالم الاسلامي من أقصاه الى اقصاه ، وهددوا الحرمين الشريفين : لقد ملك التتار مركز الاسلام ، والعربُ - الذين كانت لهم الوصاية على العالم الاسلامي ، وهم مسؤولون عنه - في نوم عميق لذيذ » .

وينتقد الشاعر الحضارة العصرية ، التي كان مصدرها أوربا الثائرة الحائرة فيقول ، في تحليل عالم فيلسوف : إن الحياة الانسانية لاتستقيم ، ولا تتزن إلا اذا جمعت بين النفي والاثبات ، بين الجحود بالزائف الباطل ، وبين الايمان بالحق الثابت ؛ وتلك هي الكلمة الجامعة التي أصبحت شعار الاسلام ، وعقيدته : لا اله الا الله .

فالشطر الأول - الذي هو النفي - إنكار لجميع الآلهة الباطلة ، من أصنام ، ومادة ، وسلطان ؛ والشطر الثاني - الذي هو الإثبات - إقرار للحق الذي لاحق غيره . وقد قطعت أوربا الشوط الأول بشجاعة وقوة ، وأنكرت الوسائط بين الله وبين العبد ؛ وثارت على الاحتكار الديني ، الذي مثلته الكنيسة اللاتينية ، في القرون الوسطى ، وألحّت عليه رجال الدين والكهنوت ؛ وثارت كذلك على الحكومات الجائرة المستبدة ، فأحسنت ؛ ولكن خذلها التوفيق في قطع الشوط الثاني الاخير ، شوط

(١) كنايات عن المقدسات والاشياء الحبيبة الى نفوس المسلمين .

الإثبات ، والتقرير ، والايمان الجازم ؛ والانسان لا يعيش على النفي فقط ، ولا يتكون المجتمع ، ولا تقوم الحضـارة على النفي وحده ، فلذلك بقيت أوربا - التي أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيمها ، وسخرت الطبيعة لمقاصدها ومصالحها - حائرة مضطربة ، تائهـة لا تملك الايمان ، ولا تملك العاطفة ، ولا تملك الغايات الصالحة ، وأصبحت مهـددة في الزمن الاخير بالانهيار أو الانتحار » . وهكذا لخص محمد اقبال تاريخ اوربا المدني ، والفكري الطويل ، في عبارة وجيزة ، ومقطوعة شعرية ، هي عصارة دراسة طويلة وتفكير عميق .

والشاعر غير متشائم في نظرته وحكمه ، وهو غير يائس من مستقبل الشرق ، فيقول : « ان الشرق زاخر بالقوة والانتاج وتبدو من هذا المحيط المادي ، موجة قوية تهز العـالم ، وتزلزل أوكار الفساد والاستبداد » . ويرجع الشاعر فينعى على الاستعمار ، الذي يرزح تحته الشرق الاسلامي ، والذي أثّر في تفكيره ومشاعره ، ففقـد الشعور بالجمال ، وأصبح لا يوثق بآرائه واتجاهاته ، ويقول : « إن المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه ، ولا يعتمد على استحسانه واستهجانه ، وإنما الميزان هو الرجل الحر ، والشعب الحر ، الذي يعيش حراً ، كريماً ، مستقلاً بتفكيره وميوله ؛ فان الاحرار ، هم وحدهم ، أصحاب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ؛ وان رجل الساعة هو ، الذي شق بهمته الطريق الى المستقبل ، ولم يقتنع بالحاضر » .

ويرجع الى تأثير الثقافة الاوربيـة في عقول الشباب الاسلامي - ومن أدرى به ، فقد نشأ في أحضانها - ، فيقول : « لقد نجح المربّي الغربي ، الذي برع وفاق في صناعة الزجاج ، في مهمته ، حتى استطاع أن يضعف الامم التي عُرفت بالنخوة والشكيمة والانفـة ، فأصبحت شعوباً رخوة ناعمـة . وأثر في الصخور والحجارة حتى أصبحت تسيل

رقة ، وفقدت صلابتها واستقامتها[1] ؛ وبالعكس قد ملكتُ الاكسير « الذي يحوّل الزجاج الى حجارة صمـــاء ، لا تؤثر فيها السيول الجارفة والمعاول الهدامة . لقد استطعتُ أن أقاوم الفراعنـة ، الذين ما زالوا مني بالمرصاد ، بفضل اليد البيضاء[2] ، الـتي أخفيها في اكمامي ؛ ولا عجب ، فان الشرارة التي خلقت لتحرق غابة بأسرها ، لا يتغلب عليها الحشيش والهشيم .

« ان الحب يبعث في الرجل الاعتـداد بالنفس ، والاحتفاظ بالكرامة ، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمـادة والسلطان » .

وهنا تأخذه الهزة ، ويملكه حب النبي ﷺ ، والاعجاب بشخصيته المعجزة ، ورسالته الخالدة ـ وهو الموضوع الذي لا يملك اقبال أمامه نفسه ـ فيقول : « لا عجب اذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي الأفلاك والكواكب ؛ فقـد ربطت نفسي بركاب سيد عظيم ، لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جده ؛ ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل ، وامام الكل ، محمد ﷺ ، الذي وطأت قدمه الحصباء ، فأصبحت إثمـداً يكتحل بها السعداء » .

وهنا يقف الشاعر ويقول : « يمنعني الحيـاء من الشاعر الحكيم ـ السنائي الغزنوي ـ والأدب معه أن استرسل في الكلام ، وأطيل الموضوع ، وإلا أمامي مجال واسع من المعاني ، والبحر زاخـر بالدرر واللآلي » .

---

(١) يكني به اقبال عن تأثير الحضارة الاوربيـة في اخلاق الشرقيين وما يتصفون به ، بعد الثقافة الاوربية ، من الرقة والنعومة والفسولة .

(٢) كناية عن الايمان والاستغناء عن المادة .

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد — القائد الشاب — بجيشه العربي المسلم على أرض اسبانيا ، مدخل اوربا ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الاسلامي لتنقطع بالمسلمين اسباب الرجوع ، ويستطيع ان يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر [1] » ... فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صف طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى انه لا يكافيء الجيش الاسباني في العدة والعدد ، ووصول الميرة والمدد ؛ فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الاسلامي غريب منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرة ولا مدد ، إلا ماينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه . ويعرف انه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الاخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ؛ وفكر ، فلم ير حيلة إلا ان يضيف الى هذا الجيش قوة لاتهزم ، وإرادة لاتغلب ؛ إنها القوة الالهية ، وانها الارادة الربانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه . أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة الناس الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى

---

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام . وقد قال الله : « وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالِبُون » « وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ المَنْصُورُن » .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الاولى - إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « اللهم إن تهلك هــذه العصابة لن تعبد » . فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لايدعو به قادة الجيوش ولايخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد اقبـال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهـاداً في سبيلك وابتغاء مرضاتِك ، رجال غـامضون مجهولون ، لايعرف سرهم وحقيقتهم غيرك . لقد منحتهم طموحاً وعلو همة ، لايرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك ، وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غـيرك . أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال . لقد ذاقوا لذة الايمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ؛ وذلك شأن الحب اذا خالطت بشاشته القلوب . ماجاء بهم من بلادهم النائيـة إلا الحنين الى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد . لايفكرون في الغنـائم ولا في فتح البـلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ، ونفوسهم بسخاء وشجاعة . إن العالم بحاجة الى دم عربي ذكي فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا

الدم العربي الطاهر . ها ان الازهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته . وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دمائنا في هذه الارض النائية ، لتخصب الانسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظار شاق ، طال أمده .

لقد أكرمتَ يارب ! رعاة الابل وسكان الوبر - العرب - بنعم فريدة ، لم يشركهم فيها أحد . لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ، هو : أذان الصبح . فقد أفلست الامم في العلم الصحيح ، والايمان القوي ، والذوق الرفيع والدعوة الصارخة السافرة الى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ؛ أما العرب فقد فاجأوا العالم بصحة علمهم ، وجدة ايمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك . لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالايمان والحنان . انهم لاينظرون الى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الانسانية ؛ انهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديدا . أعد يارب ! الى هذه الأمة المؤمنة ، الحمية الايمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلّت في دعاء نوح ، فقال : ربّ لاتَذَرْ عَلىَ الأرْضِ مِن الكافرينَ دَيَّاراً ، حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد . واخلُق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبها وهيبتها ، حتى تعمل نظراتها عمل السيوف[1]» .

وقد استجاب الله دعاء طارق - القائد المؤمن المخلص - وانتصر الجيش الاسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العدد والعُدد ،

---

(١) من « بال جبريل » ، ديوانه .

واصبحت اسبانيا النصرانية الأوربية الاندلسَ الاسلامي العربي . وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قرونا ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلّع بها طارق واصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الايمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانهماكهم في الشهوات والحروب الداخلية ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً .



حديث الربيع

خيم سلطان الربيـــع ، وانتشرت جنوده في رحاب الصحراء ، وأودية الجبال وقامت دولة الزهور والرياحين ، ودبت الحيـــاة الى الصخرات والحجارة حتى كادت تنطق وتنطلق . وغشيت العالم سحابة من المرح والسرور ، حتى أبت الطيور ان تستقر في أوكارها مرحاً . وانطلقت عيون الجبال تميس وتنساب كالحيـــاة في الصعيد ، تدب احياناً ، وتجري برفق وهدوء ، وتتدفق أخرى وتجري بقوة وسرعة ؛ واذا حبسها حابس ، فلقت الصخور والهضبات ، وشقت طريقها الى الامام ، وإنها بخريرها الدائم تغني نشيد الحياة وتردد حقائقها.[1]

يصغي محمد اقبال ـ الشاعر الحكيم ـ الى هـــذا النشيد ، ويرى كيف تتلون هذه العين التي تدفقت من بعض الجبال ، وكيف تنعطف وتتعرج ، وتتداول الرفق والقوة ، وهي مع ذلك كله لاتفقد حقيقتها وحياتها ؛ متسلسلة في الفيضان ، مستمرة في الجريان . ويرى فيها صورة للحياة ، التي تجـــري باستمرار ، وتظهر في أدوار واطوار ، وتلتزم الحركة والتطور ، فمالها من قرار . ويستلهم الشاعر الحكيم ، من مناظر الربيع التي فتقت قريحتـــه ، وأهاجت شاعريته ، ومن الدروس التي يلقيها نهر الحياة الفياض ، معاني حكيمة ، يُهديها الى الجيل الاسلامي

---

(١) مأخوذة من نفس قصيدة اقبال .

الجديد ، الذي هو مناط آماله ، ويهيئه لاستقبال العصر الجديد الذي ظهرت تباشيره .

ويقول : لقد تغير العصر وأوضاعه ، وتكشفت اسرار أوروبا ، وما كانت تضمره ، وتبينه للشرق ، حتى اصبح فلاسفتها ودهاتها وزعماؤها في حيرة من أمرهم . لقد افلست السياسة الاوربية ، وأخفقت أساليبها القديمة ؛ واصبح العالم يبغض الامارة والملوكية ، وثار المجتمع على الافراد والسلاطين . لقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش وانتهت هذه المسرحية التي مثلها الملوك وابطال الف ليلة . لقد تخطت اليقظة العالمية ، الى شعوب معروفة بالكسل ، والسبات العميق ؛ وتدفقت عيون جبال همالايا ، وتهيأت جبال سينا ، وفاران لإشراق جديد ».

ويقبل كعادته الى امته الاسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الاسلامي ، فيقول : « ان المسلم ، وان كان لايزال متحمسا في في التوحيد ، فقلبه لم يتجرد بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها ، ان الحضارة والتصوف والديانة وعلم التوحيد ، لايزال كل ذلك خاضعاً للنفوذ العجمي ، لقد طغت الخرافات على الحقيقة ، وتاهت الامة في الاخبار . إن الخطيب [١] يسحر المجتمع بكلامه وخطابته ، ولكنه جاف قليل الحظ من الحنان ، ولذة الشوق ؛ ان كلامه مؤسس على المنطق والقواعد ، ومشحون بالمفردات الغريبة ، والتراكيب البديعة ؛ ولكنه لا يأسر القلوب ، ولا ينفذ الى أعماقها . أما « الصوفي » الذي تجرد لخدمة الحق ، والحب لخلق الله ، وكان يلتهب غيرة وحمية للدين ، فقد ابتلعته الفلسفة العجمية ، و « الشكليات الصوفية » .[٢] لقد انطفأت

(١) يعني به رجال الدين الذين يخطبون ويؤلفون في المقاصد الدينية ويعظون الناس .
(٢) إشارة الى تطور التصوف الاسلامي ، وانحطاطه في العصر الأخير .

شعلة الحب والحنان في المسلم ، فاصبح ركاماً من رماد ، لاشعلة فيه ولا حياة » .

وهنالك يدعو محمد اقبال ربّه مخلصاً أن يعيد الى هذه الامة الحياة ، ويعيد اليها عهدها الاسلامي الزاهر الاول ؛ ويدعو أن يلهب في نفسه العاطفة ، ويشعل شعلة الحب فيستمد منها قوة ، وخفة روح وسمو لايحظى به الا « المحبون المؤمنون » ؛ فيطير بجناح الحب ويصل الى مالا يصل اليه الثقلاء الماديون ويدعو ان يخلق الله في هذه الامة الهامدة الخامدة قلب عليّ ولوعة ابي بكر - رضي الله عنهما - وأن يبعث في صدورها الآمال التي ماتت .

وهنالك تأخذ الشاعر أريحية الشعر والايمان ، فيقول : « حيا الله نجوم سمٰواتك ، التي تلمع ليلا ، وعُباد ارضك ، الذين يُحيون الليالي عبادة وتلاوة ، أحيي قلوب الشباب الاسلامي ، واجعلها خفاقة حساسة متوجعة ، وارزقهم يارب ! حبي ، وعاطفتي ، وفراستي وحكمتي .

لقد وقعت سفينتي في لجة ، وأحيط بها من كل جانب ، فأخرجها من هذه اللجة ؛ وقد وقفت ، فاجعلها سائرة جارية ، تصارع الامواج واشرح لي كيف تموت الحياة ، وتفقد حيويتها ، فانه لايخفى عليك شيء من هذا الكون .

ليس عندي يارب الا هذه الآلام التي اقاسيها ، والتي حرمت عليّ النوم ، وسلطت علي الارق ، هذه المطامع البعيدة ، والآمال الواسعة التي اربيها ، هذه الانات التي أرسلها ، في ظلام الليل ؛ وهذه الساعات الحلوة ، التي أخلو فيها ، وأناجيك ؛ وهذه المجالس التي أبث فيها أشواقي ، وأستنزف فيها آماقي . إن فطرتي التي فطرتني عليها ، مرآة ينعكس فيها اتجاهات العصر ، ومرتع يرتع فيه غزلان الافكار

والخواطر [١] . وان قلبي ساحة ، يتجدد فيها معارك وحروب ، بين جيوش الظن والتخمين ، وبين ثبات العقيدة واليقين . [٢] هـذه هي ثروتي ، التي اعتز بهـا في فقري ، وادعوك يارب ! ان تقسمها في الشباب الاسلامي ، وتملكهم إياها ، فتصادف محلها ، وتصل الى من هو أحق بها ، وأهلها » .

وبعد ان يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها في الكثرة ، وتطورها وظهورها في مظاهر شتى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجمود ، وقوتها وسرعتها ؛ كل ذلك في عمق ودقـة ، وهي قطعة فلسفية أدبية ، تستحق الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة وعلمائها ورواد الادب والشعر يهيب بالشباب الاسلامي ويقول له ، وهـو يعرف اندفاعه الى المادة والشهوات ، وغرامـه الشديد بالوظائف والمرتبات :

« إن الرزق الذي يفقد الابيّ الكريم كرامته ، ويرزأه في حريته وشرفه سم زعاف ؛ ان القوت المقبول ، هو الذي يظل معه الرجل موفور الكرامة ، مرفوع الهامة . ازهد في ابهة السلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بقيمتها وكرامتها ، وان السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السجدة التي تحرم عليك كل سجدة لغير الله » .

ثم يحثه على مغامرات جـديدة ، وفتوح جديدة ، وتقدم دائم ، وطموح قائم ، حتى تنكشف له عوامل جديدة ، لم يحلم بها علماء الطبيعة ، ولم تحدث عنها العلوم الكونية .

---

(١) يشير الى ما يسنح له من افكار جديدة ونظريات .

(٢) يشير الى الصراع النفسي بين الفلسفة والدين والعـاطفة الذي لم يزل الشاعر الحكيم يعالجه في حياته .

« ان هذا الكون ، الذي يتركب من لون وصوت ، والذي هو خاضع لناموس الموت ، والذي تسرح فيه العين وتتمتــع فيه الاذن ، وليست الحياة فيه - عند اكثر الناس - الا الاكل والشرب ، ليس هذا الكون الفسيح الجميل ، هو المرحلة الاولى لمن عرف قيمته ؛ انه ليس وكرك الذي تستريح فيه ، والغاية التي تنتهي اليها . ليست هذه الارض ، التي مادتها التراب ، مصدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملتهبة ؛ انت مادة الكون ، وليس الكون مادتك . كن في تقدم دائم ، ورحلة دائمة ، وحطم هذا الجبل الاصم ، الذي يعترض في طريقك ، وتمرد على هذا الزمان والمكان ، وتحرر من قيودهما ، وانطلق من حدودهما ؛ فان المؤمن اذا عرف قيمة نفسه اقتنص هذا العالم ، واقتنص هذه الارض والسماء في بعض مايقتنص » .

« ان هنالك عوالم وأكوانا ، لم تقع عليها عين بعد ؛ فان ضمير الوجود لم يفرغ جعبته ، ولا يزال يأتي بجديد . وان هذه العوالم متشوقة لهجومك ، وغارتك ، وزحفك ؛ متشوقة لأبكار افـــكارك وبدائع اعمالك . ان هذا العالم يدور دورته ، لتنكشف عليك نفسك وحقيقتك . أنت فاتح هذا العالم ، الذي يحتوي على خير وشر ؛ ويعجز البيان عن وصفك ، ويعجز الملائكة عن مرافقتك وعن غاياتك » .

نياحة أبي جهل

زارت روح عمرو بن هشام - زعيم الجاهلية والنخوة العربية - مكة ، وقد اصبحت بلد الاسلام والتوحيد . وطهر بيت الله للطائفين والقائمين والركع والسجود . وحرمت عبادة الاصنام ، والاوثان الجاهلية ؛ فلا اللات ، ولا منـاة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة .[1] وقام المؤذن على شرفات الحرم ، ينادي ، بأعلى صوته ، خمس مرات « أشهد أن لاإله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ».

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . وأصبح الناس يعتقدون أنهم من آدم ، وآدم من تراب ؛ فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، إلا بالتقوى . وسمع الناس يتلون : « يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأنثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ».

وأصغى الى الناس ، في غدوهم ورواحهم ؛ فلم يسمعهم يفتخرون ببلد أو نسب ، ووطن أو شعب . وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيّر أحداً بأمه ، أو سواده ، أو حرفته ، أوحبشيته ، اوعجميته ، ويتطاول بعربيته أو قرشيته . وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلة

---

(١) كان اكثرها اصنام قريش ، والتي كانت لغيرها ؛ كانت قريش تعظمها . راجع ابن هشام وابن الكلبي .

بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ؛ ولا مساجلة في مآثر الجاهلية وأيام العرب . ورأى الناس بالعكس يرجعون الى عبد اسود، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم فلم ير عرقاً جاهليا ، أو نزعة عربية ، أو نعرة قومية ، يتعلق بها سيد بني مخزوم ، ويقرّ عينا . ورأى ان الحياة القديمة ، قد نسخت وأبطلت ، وولد مجتمع جديد ، قام على أساس من العقيدة والخلق والفضيلة والتقوى . وتغيرت الموازين والقيم ، وتغيرت عقول الناس ونفوسهم . وسُمع ينشد في حزن واستعجاب :

فما الناس بالناس الذين عهدتُهم ولا الدار بالدار التي كنتُ أعرف

لقد أشكلت الامور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن البلد ، وسيد من ساداتها ؛ فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين ، لأنكر مكة ، وأنكر الوادي. ورأى أنه قد ضل الطريق .

لقد كان يرى في الدين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ ، الخطر والضرر على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهلي الذي يقوم على النسب ، والوطن ، وتفضيل الدم والعرق ؛ ويرى العالم كله في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكة ؛ ولا يعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كله في العرب ؛ فغيرهم عجم وعلوج ، لا يستحقون مدحاً ولا يستحقون رحمة ، ولا يستحقون عدلاً . لقد كان يرى كل ذلك ، ويتوقعه .

وكان من أشد الناس حماسة في الدفاع عن الجاهلية ، واصدق الناس فراسة في معرفة غايات الاسلام ؛ ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أن الامر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأن الاسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تطرد من عاصمتها ، ومهدها هذا الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهليــــة في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورؤي متعلقاً بأستار الكعبة يستغيث على محمد ﷺ ، وينوح ، ويقول :

« ان قلوبنا - معشر الجاهلين - قروح وجروح ، تسيل دماً ، مما صنع محمد ؛ فقد أطفأ نور الكعبة ، وحط من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى صوته : « إنْ الحكم إلا لله » و « إنّ الأرضَ لِلهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ » ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به ، وبدينه الجديد . ساحر يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ؛ وهل كفر أعظم من قوله « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والامصار ؟! إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلتها الأفاعيل ، لقد جعل اللات ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ؛ فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثار الآلهة . يا عجباً ! لقد جرّد القلوب عن معبود مشهود ، يرى ويلمس[1] ، وربطها بمعبود غير مشهود ، لا يرى ولا يلمس ؛ حتى كان هذا الايمان بالغيب أقوى ، وأعمق من الايمان بالمشهود الموجود . هل لهذا الايمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجودٌ لغائب ؟ هل يجد الانسان لذة وحلاوة في ركوع وسجود أمام غائب ؟.

---

(١) يعني به الاصنام من الحجارة وغيرها .

ان دينه حتف الوطنية ، والقومية ؛ انه من قريش ، ولكنه لايفضل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدة واحدة ، ويأكل معه . أسفاً ! انه لم يعرف قدر العرب الاحرار ، وأكرمَ العلوج ، والعبيد السود ، لقد اختلط الاحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدميم ، وذل العرب ، وذل بنو قصي .

اننا لا نشك في أن هذه المؤاخاة ، التي يحث عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمي . وقد تحقق لدينا أن سلمان مزدكي ، وان ابن عبد الله خُدع به ، وجر البلاء والشقاء على الأمة العربية . لقد جهل هذا الفتى الهاشمي قيمته ، وشرفه ؛ لقد أعمته هذه الصلاة التي يصليها ، هل لعجمي أصل عدناني ، وهل لأعجمي نطقٌ عربي ، ولهجة مضرية ؟. عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام ، الذي يسميه محمد وحياً ، بكلامكم البليغ الساحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الاسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ؛ ولماذا لا تقوم يا هُبل ! يا إلٰهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصباة . أغر عليهم ، وعكّر عليهم الحياة ؛ أرسل عليهم ريحاً ، صرصراً عاتيـة ، تجعلهم أعجاز نخل خاوية . يا مناة ! ويا أيها اللات ! بالله ! لا ترحلا من ديارنا ؛ وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وان كان لابد من الرحيل ، فلا تعجلا ، وامهلانا أياما نتمتع بكما »[1] .

---

(١) « جاويدنامه » لشاعر الاسلام محمد اقبال .

رجعية الجاهلية

مرّ شاعر الاسلام - في بعض زياراته الروحية وسياحاته الفكرية - بوادٍ ، اجتمعت فيه الآلهة القديمة ، التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت أصنامها ، وتماثيلها ؛ وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السدنة والكهان ، وتغنى بها الشعراء والادباء . وكان يجمع الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلاد مختلفة ، وعصور مختلفة ؛ فهذا إله المصريين القدماء ، وهذا رب التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية ، واولئك آلهة وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك رب الفراق ، وهذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .

ثم انهم أشكال والوان ، فهذا قد سل السيف بيده ، وهذا تقلّد حية ولواها حول عنقه ؛ وكلهم وجِلون مشفقون من الوحي المحمدي ، الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، وولد العالم الجديد ، القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ؛ وكلهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارة مفاجئة سُرّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان

« مردوخ » أول من انتبه لهـذه الزيارة ، ورحّب بالانسان القادم وأخبر زملاءه به : ابشروا يا اخواني ! فان إنساناً فرّ من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل الى العهد الماضي ، ليتوسع في العلم والنظر ؛ وجاء يتمتع بالآثار العتيقة ، ويتحدث عن مجدنا ، إنها بارقة أمل ، لاحت بعد مدة ، ونفخة هبت من أرض حكمناها طويلا ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعل - إله الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتز لهذه الزيارة ، فانشأ يغني في طرب ومرح ويقول : « إن الانسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ؛ فليست هـذه العقائد ، التي يدين بهـا الانسان ، إلا خواطر تسنح له ثم تغيب ، كالامواج ترتفع ثم تتوارى ؛ إنه لا يرتاح إلا الى المحسوس المشهود .

حيا الله الافرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، والذين أعادوا الينا الحياة وبعثونا من مراقدنا . فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التي أتاحها لنا الدهاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسى آل ابراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهـم ، ونسوا لذته .

إنهم صحبوا الغربيين مدة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ، وضيّعوا ذلك الدين الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بعث فيهم الايمان واليقين .

إن الرجل المؤمن الحر الذي لم يكن يعرف الحـدود والجهات ، ولا يعبد غـير الإله الواحد الذي خلق السموات والارض ، أصبح يؤمن بالوطن ، ويقدسه ، ويعبده ويقاتل في سبيله ، ويكفر بالله ، ويهجره ، ويتناساه .

لقد خضع المسلمون لنفوذ الغربيين الماديين وبجدهم ، وأصبح شيوخهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلدون شعارهم ، ويقتفون آثارهم ؛ فلنستبشر ، ولننتهز هذه الفرصة .

لقد عاد الينا الشباب ، وحق لنا ان نطرب ؛ فقد انهزم الدين ، وانتصرت الوطنية والجنسية . ان المصباح الذي أناره محمد ، تألب عليه مائة « ابي لهب » يطفئونه . اننا لا نزال نسمع صوت « لا إله إلا الله » ، ولكنه صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب ، وكل ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشر والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدين الالهي مهدداً ؛ فطوبى لنا ولاخواننا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلوات والمغارات .

لقد كان عُبادنا أحراراً ، لهم التصرف المطلق ، والحرية الكاملة في حياتهم ، لم نُثقلهم بعبادة وطاعة ، وانما طلبنا منهم ركعة لا سجود فيها . وقد أثرنا فيهم العاطفة الدينية بالاناشيد والاغاني ، فلم تكن صلاتهم الا مُكاءً وتصدية ، ونغمة وأغنية ، وأي لذة في صلاة لا غناء فيها ولا موسيقى ؟!

ان الناس لا بد يفضلون عبادة طاغوت مشهود ، على عبادة إله غائب ، وربٍّ لا يرى بالابصار » .[١]

---

(١) من ديوان « جاويد نامه » .

ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني

خرج الدكتور محمد اقبال مع شيخه ومربيه الروحي والفكري – الشيخ جلال الدين الرومي – في سياحة روحية فكرية ، ومرّ في جولته – الخيالية – بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصيات ماضية ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر ، والرجالات ، وتحدث معهم في مسائل كثيرة[1] .

ومر في رحلته بمنزل بكر ، لم يطأه آدمي بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدنيا بسهولها وجبالها ، وميادينها وازهارها، وعاش منذ آلاف من السنين في عزلة عن المدنية والصناعة الانسانية . وأعجب الشاعر جمالُ الطبيعة ورقة الهواء ، وخرير الماء في هدوء الصحراء.

وأقبل الى شيخه الرومي ، فقال وقد قرع أذنه صوت عذب رقيق : مالي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر انسان ؟ فهل أنا واهم ، أم حالم ؟.

قال الرومي : إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسب قريب ؛ فقد قضى فيه أبونا آدم يوماً أو يومين ، لما هبط من الجنة . قد شهد هذا المكان زفراته وأناته في السحر ، وبلت دمُوعه التراب . يزوره أصحاب المقامات الرفيعة كفُضيل وأبي سعيد ، والعارفون الكبار

(١) وفي ديوانه « جاويد نامه » قصة هذه الرحلة .

كجنيد وأبي يزيد ؛ فلنتقدم ولنسرع لندرك الصلاة في هـذه البقعة المباركة ، وننال لذة الروح ، ونعمة الخشوع التي حرمناها في العالم المادي.

ونهضا من مكانهما مسرعَين فوجدا رجلين يصليان ، أحدهما أفغاني والآخر من الاتراك . ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمال الدين الافغاني يصلي خلفه الأمير سعيد حليم باشا . فقال الرومي : ان الشرق لم ينجب في العصر الأخـير أفضل منهما ، وقد حلّ كثيراً من عُقدي وألغازي . أما الامام السيد جمال الدين ، فقد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودبت بدعوته الثائرة الحياة في الاموات والجمادات ؛ وأما الزعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدامي ، والفكر المحلق السامي ، والروح القلقة والعقل الكبـير المستنير . إن ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فخلق هدوء المكان والزمان ، وشخصية الامام ، وجمال القرآن ، جواً خاشعاً رهيباً ، رق فيه القلب وفاضت فيـه العين ؛ وكانت قراءة لو سمعها ابراهيم الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليهـا ؛ وكانت قراءة تقلق النفوس وتذيب القلوب ، وتعلو بهـا صيحة التكبير والتهليل في القبور ؛ وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتتضح بها معاني أم الكتاب .

وندع محمد اقبال يحكي قصته ، قال : « وقمت بعد الصلاة ، وقبلت يده في أدب ومحبة ، وقد قدمني أستاذنا الرومي الى السيد ، وقال : إنه جوّال جوّاب في الآفاق ، لا يستقر في مكان ، ويحمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غـير نفسه ولم يخضع لأحد ، فيعيش حراً طليقاً » .

وأقبل عليّ السيد جمـال الدين ، فقال : حدّثني ياعزيزي ! عن

العالم ، الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بنور الله .

قلتُ : ياسيدي ! لقد رأيت في ضمير الأمة التي خُلقت لتسخير العالم معركة حامية ، وصراعاً داميا بين الدين والوطن . لقد ضعف الايمان في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الامل من سيطرة الدين وسيادته ، فلجأت الى الوطنية والقومية . اصبح الاتراك والايرانيون سكارى بصهباء اوربا ونشوتها ، وأصبحوا فريسة كيدها ودهائها . أصبح الشرق خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعية ببهجة الدين وبهاء الملة .

سمع الافغاني كل ذلك في صبر وأناة ، وفي تألم وحزن ، ثم انفجر قائلا : ان الباقعة الاوربي هو الذي علّم أهل الدين ، الوطنية والقومية ؛ أما هو فلا يزال يبحث عن مركز لجمع الشعوب والاوطان ، ولكنه بذر في الشرق بذور الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصر والشام والعراق . فتحرر أيها المسلم الشرقي ! من قيود الوطنية والقومية ، وكن « عالمياً آفاقياً » يعتبر كل بلد وطنه ، وكل أرض أرضه . ان كنت تميز بين « الجميل » و « القبيح » فلا تربط نفسك وقلبك بالتراب ، والحجارة ، والقرميد . ان الدين هو ان ينهض الانسان من الحضيض ، ويعرف قيمة نفسه . ان الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات . ان الحشيش ينبت على التراب ، ويفني في التراب ، ولكن النفس الانسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب . إن آدم ولو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين ؛ إنّ جسمه يميل به الى الارض ، وروحه تطير به في الاجواء الفسيحة . إن الروح لاتنحصر في الجهات ،

وان « الحر » لايعرف القيود والحدود ؛ فاذا حبس في « التراب »[1] اضطرب وثار ، لأن الصقور لاتستريح ولا تهدأ في الاوكار .

ان هذه الحفنة من التراب ، التي نسميها « الوطن » ونطلق عليها اسماء « مصر » و « ايران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسب ؛ لأن هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ولمعت من أفقها ؛ ولكن لاينبغي ان تنضوي على نفسها ، وتنحصر في حدود أرضها . أما ترى الى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث ان تتحرر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه . إن فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وان كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية ، ياعزيزي ! فإن مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحق والباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله . إن الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة » . إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لاشأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ؛ وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إن الاخوة الانسانية لا تقوم على وحدة الاجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس .

إن الملوكية ِمَرَضٌ ، يطرأ على الجسم ؛ صدرها مظلم خاو ، ليس فيها قلب خفاق . انها كالنحلة تجلس على كل زهرة ، وتتشرب منها الرضاب ، وتغادرها الى زهرة أخرى ؛ وتبقى هذه الزهرات بلونها وشكلها ورائحتها ولكنها أوراق بالية وحشائش ذاوية . كذلك الملوكية تستحوذ على الشعوب والافراد ، وتمتص منها دماءها ، وتتركها أجساداً هامدة .

---

(١) يعني به « الوطن » .

إن « الملوكية » و « الشيوعية » تلتقيان على الشرهِ والنهامة ، والقلق والسآمة ، والجهل بالله والخداع للانسانية . الحياة عند الشيوعية « خروج »[1] وعند الملوكية « خِراج » ، والانسان البائس بين هذين الحجرين قارورة الزجاج . ان الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الاحياء ، وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء . لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة ، جسمها قوي ناضر ، وقلبها مظلم فاجر .

ألا ! من يبلغ « روسيا » أن القرآن وتعاليمه في واد والمسلمين في واد . لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلتهم عن النبي محمد ﷺ . ان المسلم اليوم لايؤسس حياته ، ولا ينظم مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدين والدنيا . لقد ثلّ عرش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشا ملوكيا ، وتربع عليه ؛ واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغير نظره الى الحياة . وتغير منهج تفكيره .

لقد حطمت « القيصرية والكسروية » مثلَ المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الروسية ! من تاريخنا . عليك بالثبات والاستقامة في معركة الحياة ، فاذا كنت قد كسرت هذه الاصنام « الملوكية والوطنية » فلا تعودي إليها ، ولا تطوفي حولها مرة ثانية . إن العالم اليوم يطلب أمة ، تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدة . فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته . لقد أصبحت ديانات الأفرنج ودساتيرهم عتيقة بالية ، فلا تعودي إليها مرة ثانية . لقد أحسنت إذ

---

(١) يعني تجرد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

الغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدأي مرحلة الاثبات « إلا الله » ؛ وهكذا تكملين مهمتك ، وتتمين رحلتك العظيمة . إنك تبحثين عن نظام للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساس محكم ؛ وليس هو إلا الدين والعقيدة .

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الاولين أسطورة أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورة سورة . وماأدراك ماالقرآن ؟ إنه نعي للملوكية والسخرة ، وحتف للاكتناز والاثرة ، وحياة للصعلوك ، وبشرى للملوك . انه يذم الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولاينفقونها في سبيل الله ، ويحث على إنفاق كل مافضل عن حاجة الانسان ؛ ويقول في صراحة « لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » . إنه يحرم الربا ، ويُحل البيع ، ويحث على القرض الحسن ؟ وهل يتولد من الربا إلا الشرور والفتن ، والقساوة والضراوة ؟ ان اكتساب الرزق من الارض جائز ، فكل مافي الدنيا ملك لله تعالى ، ومتاع للعبد ؛ والانسان أمين في مال الله ، وصي على أرضه وخلقه ، « وأنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فيه » . لقد انتكست راية الحق بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدن بظلمهم وعبثهم . ان المبدأ الذي يقرره القرآن : ان قوت بني آدم من مائدة واحدة ، وان الاسرة الانسانية كلها كنفس واحدة [1] .

انه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان . أقول لك ماأؤمن به وأدين . إنه ليس بكتاب فحسب ، إنه أكثر من ذلك .

---

(١) ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .

اذا دخل في القلب تغير الانسان ، واذا تغير الانسان تغير العالم . انه ظاهر ومستتر ؛ كتاب حي خالد ناطق . انه يحتوي على جـــدود الشعوب ، والامم ، ومصير الانسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ، ودستوراً جديداً ؛ فجدير بكِ أن تنظري الى العالم بنور القرآن نظراً جديداً [1] .

* * *

---

(١) « جاويدنامه » فلك عطارد باختصار واقتباس .

في مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلّم

لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر - مدة حياته - في حب النبي ﷺ ، والاشواق الى مدينته ، وتغنى بهما في شعره الخالد ، وقد طفح الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع . ولم يقدر له الحج ، وزيارة الرسول ﷺ بجسمه الضعيف ، الذي كان من زمان يعاني الامراض والأسقام ؛ ولكنه رحل الى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلّق في أجواء الحجاز ، وتحدث الى الرسول الاعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبه ، واخلاصه ووفاؤه [1]. وتحدث اليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمته ، وعن مجتمعه . وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني ، والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة إطلاقها ؛ وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامــة جرعى دومة الجندل ، اسجعي

فأنت بمـرأى من سعـاد ومسمـع

فكان شعره في النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ اشعاره

---

(١) ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء ، إنما هو اسلوب من أساليب الشعر والحب ، استعمله الشعراء قديماً وحديثاً .

وأقواها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويرا لعصره ، وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه .

لقد قال محمد اقبال هـذه الابيات ، وهو يتخيل أنه مسافر الى مكة والمدينة - شرفهما الله - يهوى به العيس ، ويسير به الركب على رمال وعساء ؛ يتخيل ، بشدة شوقه وحبه ، أنها أنعم من الحرير وان كل ذرة من ذراتهـا قلب يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً ويرفق بهذه القلوب الخفاقة . ويحدو الحادي بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول فيصلي ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه . وينتهز الفرصة ، فيحدّثه عن نفسه ، وبلاده ، والفترة التي يعيش فيها ؛ وعن أمته ، وعن الازمات ، والمشاكل التي تعانيهـا ، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان ، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية ، والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها والامانة التي حملتها ، وأين هي من ماضيها وخصائصها ؛ يرثي لها تارة ويبكي ، ويشكوها مرة ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنـه ، ووحدته في مجتمعه ، وضيعة رسالته في أمته . وقد سمى هذه المجموعة « بهدية الحجاز » ، كأنها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ؛ ولا شك أنها هدية مباركة للعالم الاسلامي ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ووهنت قواه ، في سن يفضل فيها الناس الراحة والاقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ؟ والسفر الى الحجاز شاق مضنٍ ، وقد نصحه الاطباء ، والأحبة بالراحة والهدوء ؛ ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب ، ويلبي منادي الشوق ويقول :

« لقد توجهت الى المدينة رغم شيبي وكبر سني ، أغني وأنشد الابيات في سرور وحنين ؛ ولا عجب فان الطائر يطير في الصحراء طول نهاره ، فاذا أدبر النهار ، وأقبل الليل رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوى اليه ، ويبيت فيه » .

كأنه يقول لماذا تعجبون اذا قصدت المدينة - وهي وكر طائر الروح ومأرز المؤمن - في أصيل حياتي ، وفي سن أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب ؛ أما رأيتم الطائر اذا جن الليل أمرع الى وكره .

بدأ محمد إقبال سفره ، وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها : « رويدك ياحبيبتي ! فان راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن ؛ فمشت في نشوة وطرب ولم تبال ، كأن الصحراء حرير تحت أرجلها » .

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحدو بالصلاة على النبي ﷺ . ويريد الشاعر ان يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها في جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويملكه الشوق ، فيحدو ، وينشد أبياتاً من شعر العراقي [1] والجامي [2] فيتساءل الناس : من هذا الاعجمي الذي يغني ويحدو بلغة لانفهمها ، ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها ايماناً وحنانا ، حتى يذهل الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء ؟!

ويلذ الشاعر بكل مايعتريه في الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة طعام وشراب . ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول ، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول ، حتى يعيش في هذه الاشواق ،

---

(١)و(٢) شاعران فارسيان ، لهما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق .

وهكذا يطوي محمد اقبال هذه المسافة ، في سرور وحنين ، حتى يصل الى المدينة ، فيقول لزميله : تعال ياصديقي ! نبك سروراً ونتحدث ساعة ، ونرسل النفس على سجيتها ، فان لنا شأناً مع هذا الحبيب ، الذي أسعدنا به الحظ ، بعد طول فراق وشدة اشتياق .

ويقبل على نفسه ، فيتعجب كيف اختص ، من بين اقرانه ، بهذه السعادة ، ثم يقول : « لاعجب فان المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين . ياسعادة الجد ، وياحسن الطالع !! لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك » .

ولا يلبث محمد اقبال - وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة - أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندي ، يذكر آلامهما وآمالهما ؛ فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر ،وصداقة الرائد ، وما أجملها اذا التقتا . يقول :

« ان هذا المسلم البائس ، الذي لاتزال فيه بقية من شمم وإباء ، وأنفة الملوك وعزة الآباء ، لقد فقد مع الايام ، يارسول الله ! لوعة القلب واكسير الحب ؛ إن قلبه حزين منكسر ولكنه لايعرف سر ذلك » .

« ماذا أحدثك يارسول الله ! عن آلامه ورزيئته ، حسبك أنه هوى من قمة عالية ، انه هبط من تلك العلياء التي وصلت به اليها ؛ وكل ماارتفع المكان الذي يسقط منه الانسان كان ألمه شديداً ، وكانت الصدمة عظيمة ، فلطف الله ! بهذه الامة المنكوبة ، الهاوية من قمة المجد العالية » .

« انه لايزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله . حسبك من هذه الامة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ؛ انها تعيش من غير امام » .

« ان غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ؛ وان الكتاب الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الخرب ، على طاق تراكمت عليه الاتربة ، ونسج عليه العنكبوت » .

« انه أصبح ، بطول عهده بالمغامرات والبطولات ، لايفهم لغة المغامرين ، واهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألف نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين » .

« وإن عينه فقدت النور ، وإن قلبه حرم السرور . ان رزيئته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور » .

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم ، الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء ، وحاضره القاسي الكالح ؛ وكيف صعب عليه أن يتقشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة . وما أبلغ قوله : « انه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربَّيته بالفواكه ، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء » .

ويتذكر محمد اقبال فتنة اللادينية التي توجهت الى العالم الاسلامي ، ويعرف محمد اقبال ـ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ـ أن سببها النظرُ المادي البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ؛ وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس . ويعتقد أنه لا سبيل الى محاربة هذه اللادينية ، والفلسفة الاقتصادية المادية الا الحياة التي تقوم على الحب والزهد ، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصديق ، المحب الزاهد . فيتمنى للمسلمين هذه

الحياة المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد : واذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس الى تقديرها واجلالها .

انه لا يعلل انحطاط المسلمين بالفقر ، والضعف في المادة ، بل يعلله بانطفاء تلك الشعلة التي التهبت في صدورهم ، ويقول : « ان اولئك الفقراء - المسلمين الاولين - لمّا عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في صف واحد ، استطاعوا ان يمسكوا بتلابيب الملوك ؛ ولما انطفأت هذه الجذوة في صدورهم انطووا على نفوسهم ، وأووا الى الزوايا والتكايا » .

انه يستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيه ما يُخجل كل مسلم ؛ يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ؛ ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابرة والطغاة ، ما يتندى له الجبين حياءاً . يذكر « اقبال » ذلك كله ويُطرق رأسه حياءاً وخجلا ، ويقول في صراحة واعتراف ، وبلاغة وايجاز : « ان جملة القول ، ما كنا جديرين بك يا رسول الله » .

ويلقي نظرة على العالم الاسلامي ، وقد جال في أنحائه ، وعرف مراكزه ، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي ، ويقول في إجمال : « ان المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرة لا تملك غذاء القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد ، فهي تردد ما تلقنته في الماضي ، في غير إبداع وابتكار ؛ وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة . أما أندية الشعر والادب ، فقد خرجتُ منها كئيباً حزيناً ، فليس في نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ويثير الطموح ؛ انه شعر بارد ، يخرج من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت » .

ويقول : « قد ضربتُ في مشارق الارض ومغاربها ، فوجدت المدن

تغص بالمسلمين الذين يفرَقون من الموت ، أما المسلم الذي يفرَق منه الموت ، فلم أر له عيناً ولا أثراً » .

ويذكر السر في ضعف المسلمين ، وتشتت أهوائهم وخمودهم ، فيقول : « لقد شق علي ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً ، وشكوت الى ربي ، فقيل : ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب ؟! يعني انهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ، ويوجهونها اليه . فقلوبهم تائهة ، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سر » . وهي حياة من رزق القلب وحرم الحب ، أو حياة من عرف الحب ، وجهل المحبوب . إنها ، لاشك ، حياة عذاب وشقاء ، وحياة حيرة وضلال .

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمة الله ؛ بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين ، وقطعهم الرجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول في عتاب وتألم : « ان أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وانهم متشائمون ، ينظرون الى المسلمين ، والى الحياة بمنظار أسود . ويقول : « ان المسلم ، وان كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ؛ وانه إن قدر له ان يعود الى مركزه ، كان جماله جلالا ، وكانت له سطوة لا تطاق » .

وهنا يقبل محمد اقبال الى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه . يقول : « إني أستحق العطف والعناية ، فاني في صراع عنيف ، وحرب دامية ، مع عصري المادي » .

ولا شك أن اقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما وانتقدهما ، وزيّفهما

في شجاعة وعلى بصيرة وخبرة . وقد كان مربي جيل جديد ، مؤمن بالله ، واثق بنفسه ، معتدّ بشخصيته وشخصية الاسلام ، كافر بالأسس المادية والتفكير المادي ، الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحق له أن يقول :

« لقد أذّنت في الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه اسرار الروح والحب . لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنتُ ثائراً على فتن عصري » .

ويذكر تمرده على العلوم الغربية ، وتفلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وايمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة : « كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ، ويأخذ الحب ، ويطير بسلام » . وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالماً .

ثم يقول في افتخار واعتزاز : « يعلم الله ! اني رحلتُ في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير ان أرزأ في عقيدتي ، وخلقي وصلتي بك . وقد جلست في نارها بشجاعة ، وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن ابراهيم عليه السلام - مع نار نمرود » .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوربا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة ؛ فيقول : « لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي . حتى لما وقع بصري عليّ لم أعرف نفسي » .

ويقول : « لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمرة حانته كأساً دهاقاً ، ياله من صداع اشتريته ! لقد عشت بين علمائه ، وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ؛ يالها من فترة مظلمة

قضيتها من حياتي ! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب . ان دروس الحكماء قــد صدعت رأسي ، وكدرت بالي ؛ ذلك لأني نشأت في حضانة الحب والايمان ، فلا يناسبني ولا يملأ فراغ نفسي الا العاطفــة والحنان » . وهنا يقبل الشاعر الى الطبقة التي تمثل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول : ان العالم الديني لا يحمل همّاً ، ان عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع . لقــد زهدت في صحبته لانه علم ولا همّ ، وأرض مقدسة ولا زمزم » .

لقد شبه محمد اقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علمــاً كثيراً ، وعقلاً كبيراً ، ولكنــه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ؛ ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالهــا فحسب . فما أفقر العالم الديني الذي يحمل علماً جماً ، ولساناً بليغاً ، وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دمعــة في عينه ، ولا لوعة في قلبه . انه أخذ من الارض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداهـا .

ثم يحكي عن نفسه . ويقول : « انني لم أبع نفسي وضميري لأحد ، ولم أستعن بأحد في حل مشاكلي ، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مائتي مرة » .

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم ، فيقول : « إني أحترق بنار شوقي وحبي ، وأستغرب أني خلقت في عصر لا يعرف الاخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ؛ في عصر لم يعرف لوعة القلب ، ولم يذق لذة الحب . أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي ، وقد أتحدث الى نفسي وأخفف من أشجاني وآلامي » .

ويقول : « إن اخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، انهم لم يجنوا الرطب

من نخل شعري ، اليك أشكو يا سيد الامم ! من أناس لا ينظرون إليّ الا كشاعر أو متغزل .

لقد أمرتني يا رسول الله ! أن أبلغ اليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القُساة يقترحون علي أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتني به » .

ويشكو ، في توجع وحزن عميق ، زهدَ أبناء عصره في العلم ، الذي كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ، ويقول : « عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحد ، فلم أر فيه راغباً ولا له طالباً ، وابحث ثروتي ، وما يحويه صدري فلم أر لها مقدراً ؛ فليعمر حبك قلبي ، وليشغل حديثك لساني ، فاني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة مني » .

ويختم قصيدته بابيات يوجّهها الى المرحوم الملك عبد العزيز بن السعود - باعتباره ملك الحجاز في عهده - وهو خطاب موجه الى جميع ملوك العرب ، وزعمائهم ، وعظمائهم يحذره من الاستعانة بالأجانب ، والدول الاوربية ، ويدعوه الى الاعتماد على الله ، ثم على ما عنده . يقول : « اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك ؛ ولا تنس ان استعارة الاطناب من الأجانب حرام » .

الفهرس

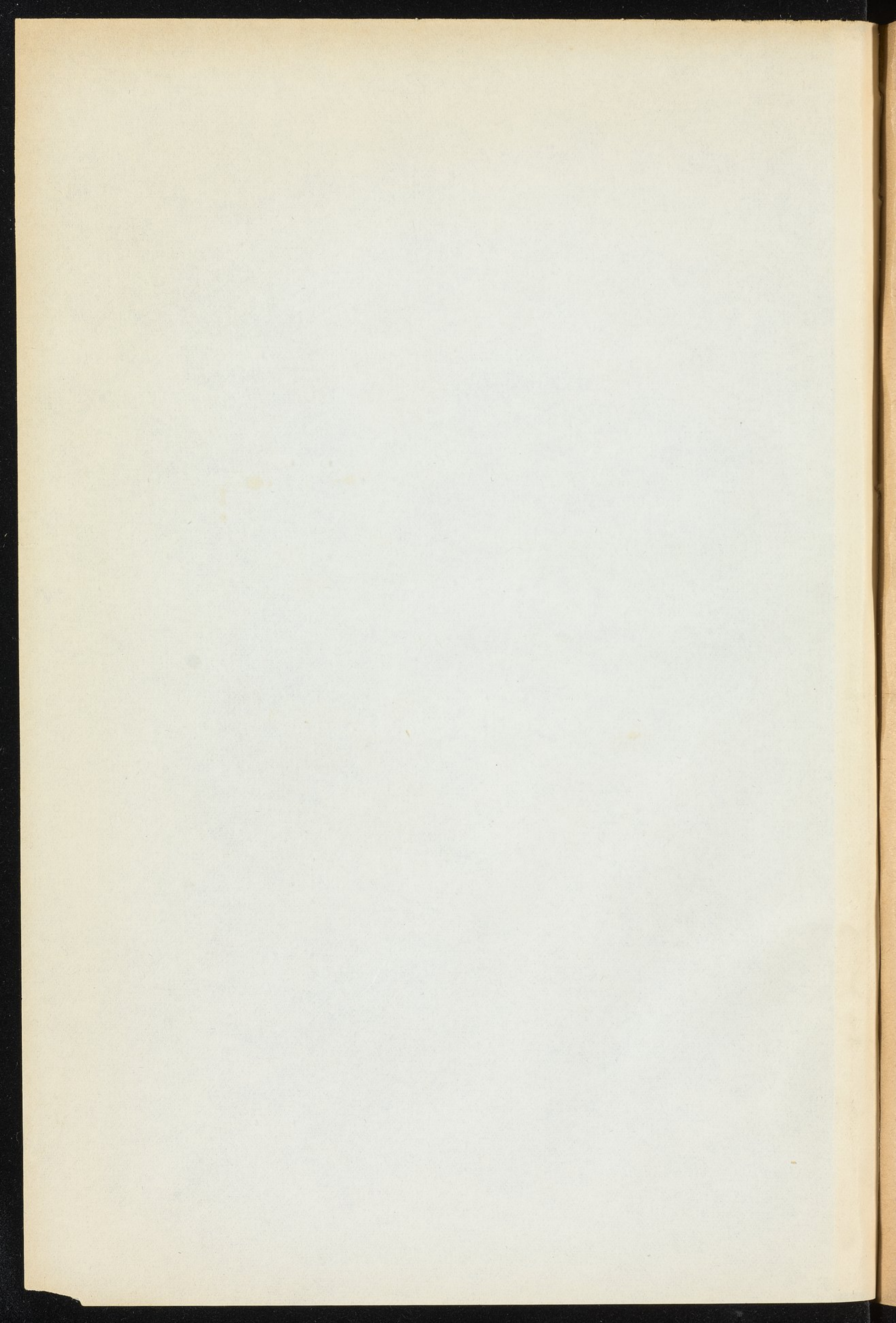
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

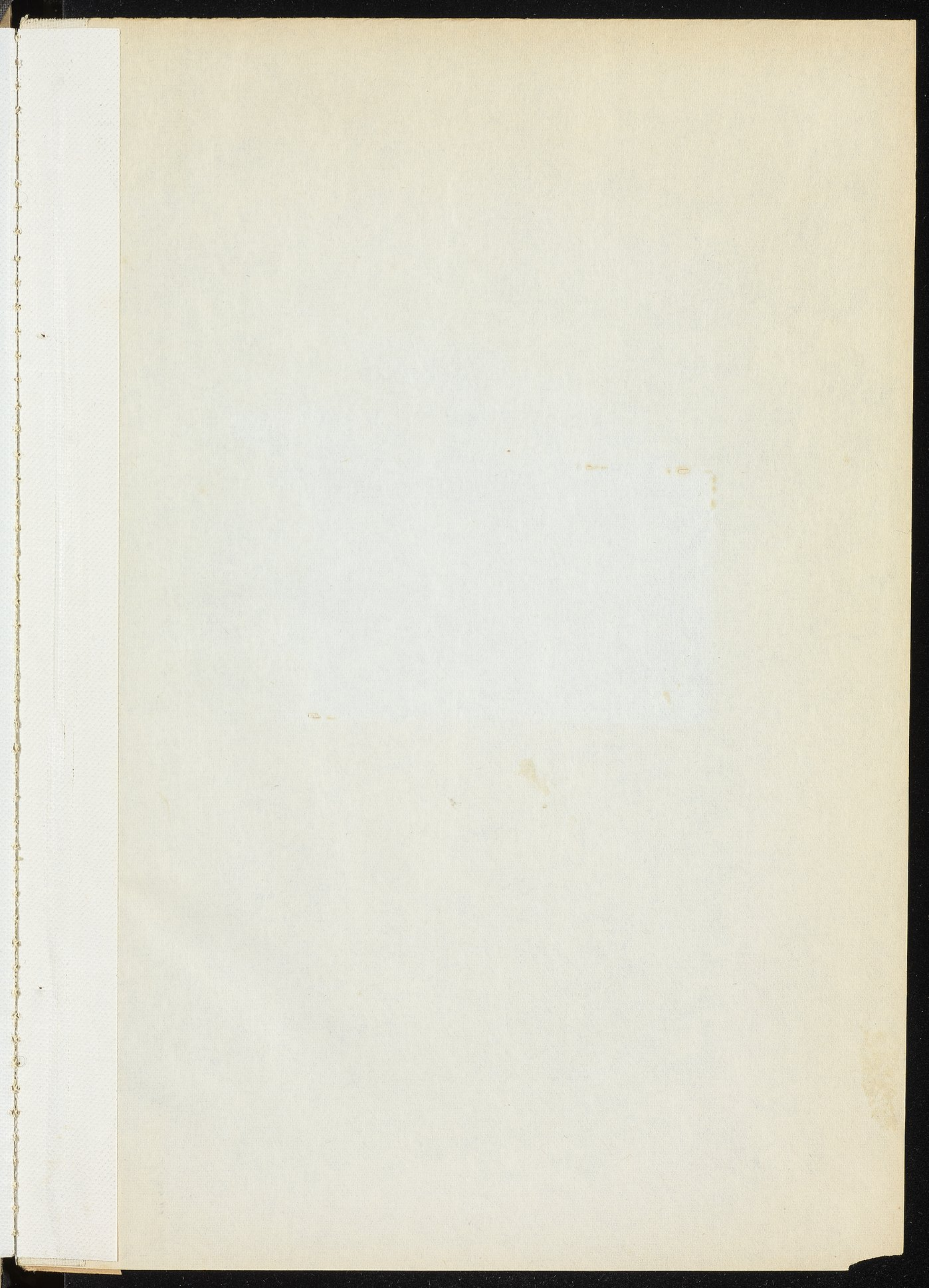
مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفائس الكتب القديمة والحديثة

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢ - برقياً : فكر

المكتبة : شارع سعد الله الجابري

المطبعة : شارع خـالد بن الوليد







دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر
دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع
في القاهرة : مكتبة دار العروبة
في بغداد : مكتبة المثنى

٢٠٠ ق.س أو مايعادلها